أفتح عينك تأكل ضرباً

شيرهان البابلي

روايتي

الرواية من تأليف الكاتبة/"شيرهان البابلي"شيرهان مصطفي محمد، حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، لا يجوز نسخ أو توزيع الرواية بأي وسيلة دون إذن خطي مسبق من المؤلف"

أفتح عينك تأكل ضربًا

أهلاً بكم في المنطقة الرمادية، تلك الردهة التي تفصل بين الهاوية والحافة، حيث لا عودة ممكنة إلا بمجهود جبار أو معجزة، لكن يبدو أن زمن المعجزات قد انتهى.. قد تكون شخصيات قصتنا من وحي الخيال، لكن لا تنكروا أننا جميعًا، بلا استثناء، قمنا بجولة في عالم يملئه كائنات بشرية غريبة النفسية.. فاستمتعوا بالبقاء!

"إهداء إلى جيل التائهين في متاهات النفس، الباحثين عن معنى وسط الفوضى، العالقين بين الحلم والواقع، والذين لا يزالون يرسمون ملامح وجودهم رغم العتمة."

شيرهان البابلي

نقطة من أول السطر

كان في أول يوم دراسي، كل شيء يبدو مثاليًا.. الملابس الرسمية الجديدة تلمع، والحقائب المصقولة تروي قصصًا عن أحلام بريئة، حتى أن وهج الحماس كاد يطغى على صوت الأمهات وهن يلقين وصاياهن المعتادة.. لكن الحقيقة لم تنتظر طويلًا.. ساعة واحدة فقط، وانقلبت الأحلام إلى كوابيس صغيرة، الملابس تخنقنا، الحقائب ثقيلة، والسندوتشات... دائمًا جبنة بيضاء! وكأن هناك قسمًا مقدسًا أُبرم بين الأمهات: "لن نخرج من البيت إلا وحقيبتنا تحمل الجبنة البيضاء!"

ذاك الزمن الأبيض.. كان اللون يتسلل من الجدران إلى الصحون، ومن الصحون إلى كل زاوية في حياتنا.. حتى تلك الجبنة البسيطة، كانت شاهدة على معاناة لا تنتهي، من تورم الأيدي بسبب عصا المعلم إلى أحلامنا الصغيرة التي تحطمها رتابة الصفوف الصباحية.. أبناء الثمانينيات والتسعينيات عاشوا عصرًا فريدًا، حيث أصبحت حياتهم رمزًا للبساطة، وربما القهر أيضًا، تترافق مع ضجيج المدارس والواجبات الثقيلة، وأحلام مستعصية في حياة مختلفة.

لكن يومًا ما، قررت الأمهات التغيير.. كانت خطوة جريئة، أشبه بثورة صغيرة، استبدلن فيها الجبن بسندوتشات الفول والفلافل المضاف إليها الزيتون الأخضر داخل العيش الفينو.. بدا الأمر وكأنه فتح جديد، لحظة مختلفة في روتيننا المتكرر.. لكن لم تكن النتيجة كما توقعنا.

وسط الحصص، اجتاحتنا موجة نعاس قاتلة.. كانت رؤوسنا تسقط على الطاولات، فيما عصا المعلم تسبقنا بغضبها المعهود.. لم يكتفِ بالضرب، بل أطلق تعليقه الشهير:

- **أكلت فول؟ لا تأتِ به مرة أخرى!**

وكأن سندوتش الفول أصبح جريمة يعاقب عليها القانون المدرسي.

لم يدم التغيير طويلًا.. عاد الزمن وأعادنا إلى السندوتشات القديمة.. لكن تلك اللحظة، رغم بساطتها، ظلت محفورة في ذاكرتنا.. يوم التغيير لم يكن مجرد سندوتش، بل كان رمزًا لمحاولة الخروج من دائرة مغلقة ، حتى لو للحظة واحدة.
كبرنا، وأقسمنا أن نصنع حياة أخرى لأطفالنا.. قررنا الثورة على إرث الماضي، وحاولنا تزيين الحاضر بكل ما أتيح لنا.. استبدلنا السندوتش المعهود باللانشون، و الجبن التركي،و اللبن المعلب بدلاً من البلدي وحتى بالأطعمة الجاهزة.. كنا نخدع أنفسنا، نتوهم أننا نهديهم رفاهية ما افتقدناها، لكن الحقيقة أن الحياة كانت تنتقم منا بطريقتها الخاصة.. جاءت موجات الغلاء لتعيدنا إلى مربع البداية، لكن الجبن الابيض تبدل بالجبن الفلاحي والفول والفلافل والعيش البلدي، لكن هذه المرة، ليس كرمز الأمهات، بل كخط دفاع أخير في وجه الحياة، لكن الصغار أقسموا على الثورة لتحل محلها السندوتش السوري صاحب العشر جنيهات.. لتقف الأمهات صباحا أمام المحل السوري فى منطقتنا وعند انتهاء العامل من صنع السندوتش والنداء على الرقم يأخذ الصغير الجائزة المحملة بكم من الكربوهيدرات.. لنجد الشحوم تتراكم بأجساد الصغار ونحن نصبر أنفسنا أنها بطاطس بالنوتيلا السوري عفواً الثومية.

والأمهات، بطريقتهن التي تجمع بين الحب والحيلة، حملن إرثًا لا يمكن كسره.. من العودة إلى البداية، كان كل شيء يدور في دائرة مغلقة من البساطة والتضحيات.. أكلنا من العدس والفول المدشوش و لم تكن مجرد طعام؛ كان جزءًا من هويتنا، قطعة من ذاكرة الزمن، تربطنا بعصر ملون بالمفارقات حيث الأحلام البسيطة تتجاوز سقف الواقع، وحيث ضحكات الصغار كانت تخفي في طياتها حنينًا لم ندركه إلا لاحقًا، لكن أبناء اليوم لا عدس يدخل البيت وأن دخل انقلب البيت صراخ.

نحن، أبناء ذلك الجيل، كبرنا دون أن نشعر..أصبحنا آباء وأمهات، نحاول الهروب من ماضٍ يطاردنا بطريقة أو بأخرى.. نبحث عن أنفسنا في مرايا لم تعد تعكس سوى علامات الزمن، بينما أبناءنا يكبرون سريعًا، يتفوقون علينا في كل شيء.. الطول، الفهم، وربما حتى الأحلام.. في عالم اليوم، أصبح كل شيء مشوشًا.. الجيل الجديد يعيش صراعاته الخاصة، يتقمص دور العلماء دون أن يدرك أن طفولته تتسرب من بين يديه ويدينا.

والحقيقة المرّة أننا، دون قصد، ورثنا لهم تلك الفوضى التي زرعها الزمن فينا.. فنقول يجب أن تكون عالماً أو طبيباً أو مهندساً وهم يقولون لا التكنولوجيا، التمريض، البترول هم المستقبل، تقول احد الأمهات أنا ابني عبقري لنجد الصغير يرتدي نظارة غوغل وآخرين تقول لا فهو يحب اللعب وهذا يدل على الذكاء والحقيقة الاثنان يعشقون الانمي ..للأسف الماضي يطاردنا، الحاضر يرهقنا، والمستقبل ينتظرنا بسؤال مخيف: "ماذا تركنا لهم حقًا؟"

البداية

كان والدي دائمًا حريصًا على أن يكون "حزامه" جاهزًا، يعلقه على خصره طوال اليوم، في حال احتجنا إلى تذكير أو تأديب.. أما والدتي، فكان "شبشبها" في قدمها، كأنَّه سيف مسلط علينا إذا صدرت منا كلمة خاطئة أو تصرف غير لائق.. كان هذا هو رادعنا، وكنا نعرف أنَّ السكوت أفضل من مواجهة عواقب الفعل.

لكن الآن، الأمور اختلفت بل انقلبت.. قد رميْنا الحزام والشبشب، وأصبح لسان الأولاد هو السلاح الذي يُسلط علينا.. صاروا يستخدمون كلماتهم كالرصاص، واحتفظوا بكلماتهم الحادة مثل السوط، أصبحنا نحن من يحتاج إلى الحذر في اختيار كلماتنا، لأنَّ صرخاتهم وضحكاتهم الجارحة أصبحت أكثر قسوة من أي حزام أو شبشب.
أتذكر حين كان الصداع يزورنا ونحن صغار، كنا نلجأ إلى والدينا، فيأتي الرد سريعًا:

- **هل هناك أطفال يصابون بالصداع؟**

نُجبر على النوم والألم يطنّ في رؤوسنا، فنستيقظ صباحًا ونقنع أنفسنا:

- **لابأس، نحن بخير، يبدو أن الصداع كان مجرد تهيؤات.**

وهكذا تعلمنا أن الألم أحيانًا لا يهم... إلا إن كان مؤكدًا بشهادة الكبار!

أما إذا أصيب طفل اليوم بوجع في الأسنان، يصبح المشهد دراميًا من الدرجة الأولى، زيارة فورية للطبيب، خلع الضرس بعناية، ثم تركيب حافظ مكانه، وكأننا نبني برجًا في موقع أثري.. أما إذا اشتكى من صداع، حتى لو كان في السادسة من عمره، تكتشف فجأة أنه على دراية بالمسكنات أكثر منك، و بتلقائية يقول:

- **عندي صداع وقرفان!**

وهنا تبدأ رحلة الطبيب لكشف لغز الصداع وحماية الأسنان... والنفسية أيضًا، لأن الجيل حساس مثل شاشة اللمس.

أما نحن؟ لو ألم بسيط في الضرس، تتولى الوالدة القضية شخصيًا.. الحل؟ خلع الضرس باستخدام "خيط" مربوطة على باب الغرفة، وكأنها تشارك في فيلم أكشن.. بعد دقائق، ينتهي الأمر بجملة أسطورية: "الحمد لله.. تخلّصنا من الألم؟" ونكمل يومنا بشكل عادي.

في الماضي، كان "العقاب" ملموسًا وسريعًا، أما الآن فقد أصبح أقوى علينا ،كاننا جيل مكتوب على بطاقته الشخصية يجب أن تشبع ضرباً، أما الآن التربية الحديثة أزاحت أسلحة الآباء القديمة جانبًا.. الآن، صارت الكلمات هي ساحة المعركة الوحيدة، لكنها معركة غير عادلة.. في النهاية، نستسلم بلا مقاومة، ونكتشف أننا تحولنا إلى بنك مفتوح على مدار الساعة، يلبي كل طلبات هؤلاء الصغار بلا نقاش، وكأننا وقعنا عقد عبودية تحت اسم "الحنان المفرط".
قبل الزواج ما يؤرقنا هو كلمة بامبرز التي تتصدر كل حديث ، يتبعها مهرجان النصائح والتحذيرات من الأخوات والزميلات: "الله يعينك! هل تعرف تكلفة البامبرز اليوم؟ اللبن الصناعي؟ أجرة الطبيب؟ وماذا عن الولادة القيصرية؟".. وكأن الزواج صفقة بامبرز ولبن بالحليب الصناعي مع فاتورة طبية طويلة!

ثم يأتي الجدال الأزلي.. القيصرية أفضل من الطبيعية!، والحقيقة أن الطبيعة كانت تعمل بشكل جيد جدًا قبل ظهور هذه المنافسة غير العادلة.. ومع ذلك، تذهب البعض طواعية للقيصرية كأنهن في نزهة جراحية، "تقولن أسبوع وتعودين كأن شيئًا لم يكن"، بينما في الواقع الطبيعية والقيصرية معًا كفيلتان بجعل الأم مستلقية شهرًا كاملًا تتساءل عن جدوى الحياة!

وطبعًا، أنت أيها العريس، لن تسأل.. فأنت تسير الآن في بحر العسل، رافعًا شعار السعادة المطلقة.. وعندما يأتيك خبر "المدام حامل"، ستطير من الفرحة... ومعها تطير آخر ما تبقى من مدخراتك.

تقول أمي دائمًا بفخر إنها ولدتني فوق السطح، بينما كانت تجلس مع الجارات في جلسة سمر خفيفة، مع طبق من اللب والمقرمشات.. ثم نزلت بعدها إلى البيت تحملني كأن شيئًا لم يكن، ليجدها والدي بانتظاره مبتسمة، وهو سعيد وكأنني جائزة من برنامج مسابقات!

أما الكافولة، فقد كانت الحل السحري لتربية أجيال الثمانينات والتسعينات.. لم نسمع عن أطفال يستيقظون ليلاً ولا عن أمهات يتذمرن، فقد كن يمتلكن قدرة غريبة، أشبه بالسحر، على إقناع المولود بأنه "رجل"، حتى لو كان يزن ثلاثة كيلوغرامات بالكاد.. أما الفتاة، فقد كانت تُزرع فيها مشاعر المسؤولية منذ يومها الأول: "أنتِ امرأة، لا بكاء بعد التاسعة مساءً!"
لم نكن نعرف الدروس الخصوصية في زماننا، كانت الدراسة شيئًا مقدسًا لا يُترك تحت أي ظرف، حتى لو كانت الكوارث على الأبواب.. خمس وعشرون قرشًا كانت كفيلة بتغيير يومك بالكامل: عصير "بست" مثلج، باكو "كاراتيه" مغلف بحب، وربما ظرف لب سوري إن كنت في مزاج احتفالي.. ولأننا رواد البساطة، كان رأس الدوم الناشف صديقًا للجيب والعراك، نتناوله بشغف أمام المدرسة وكأننا نقتحم تحديًا بطوليًا.

أما الآن؟ العيال يأكلون "ما لذ وطاب" من الشيبسي والنوتيلا، ثم يقولون بوجه مبلل بالنعمة: "إحنا محرومين!"
يا سلام على الحرمان بنكهة الشوكولاتة والجبنه الرومي!

فى هذا المستقبل المبهج الأطفال يصيحون: "إنتم غير مهتمين بنا!"، ثم يجلسون على هواتفهم يشتكون إلى الذكاء الاصطناعي من الاكتئاب، بينما تحدق فيهم بحيرة، وتتساءل: من الذي كان يجب أن يقلق على من؟

الآباء والأجداد

الحاجة أمينة أمي،كانت ابنة الثلاثين عندما تزوجت أبي في بيت العائلة عند جدي، الرجل الميسور ذو العينين الزرقاوين والشعر الأشقر، كانوا دائمًا يقولون إن أمه شامية، فذلك الجمال لم يكن مألوفًا لدينا، إذ كان البياض والعينان الزرقاوان مقصورين على الغرب والشام.

لكن جدي، رغم مظهره الذي يثير الإعجاب، كان مصريًا أصيلًا وموظف درجه أولى.. جماله هذا أثار تساؤلات الجميع، حتى أنني، حفيده، كنت أُتهم أحيانًا بأنني أجنبي، رغم أنني مصري حتى النخاع.. كانوا يرون في بياضي وعينيّ ميراثه، وكأن هذا كافٍ لينزعوا عني هويتي المصرية، متجاهلين لساني الذي تعرّب بفضل القراءة التي زرعها فيّ جدي عامر، رحمه الله.

كان جدي رجل طيب القلب محبوب من الجميع حتى عند أزواج بناته، وكنت أرافقه أحيانًا إلى المكتبة.. هناك، تعرفت على العالم من خلال الكلمات.. أما أمي، فقد كانت تكافح لتربية طفلين، وكانت تأخذني إلى بيت جدي أحياناً تتركني لأني كنت طفلًا كثير المرض .. وهكذا، بدأت القراءة تتسلل إلى روحي شيئًا فشيئًا.
أما جدتي لأمي خديجة، الغنية بنت الباشوات، "خديجة"، فكانت امرأة مهيبة.. رغم اعتراضها المستمر على تصرفاتنا الصغيرة، إلا أنها كانت مثالًا للصرامة والنظام.. كانت تأخذني أحيانًا إلى عالمها المليء بالكتب والقصص أعتقد أن هذا هو الجانب المشترك بين جدي عامر وجدتي خديجة القراءة.. لسانها الذي يحمل خمس لغات، كان ثقيلًا لكنه وقور، تمامًا مثل حضورها.

جدتي "خديجة" علمتني أن النظام أكثر من مجرد ترتيب للأشياء؛ هو أسلوب حياة.. بيتها كان أشبه بالصيدلية، كل شيء فيه مُرتب بالأرقام، وأرضه لا تعرف ذرة تراب.. إذا شربت كوبًا من الشاي، عليك أن تغسله فورًا وتعيده إلى

مكانه، وإذا أكلت، وجب عليك اتباع قواعد دقيقة.. كانت متوسطة البدن، قصيرة بعض الشيء، لكنها جميلة للغاية بملامح تركية خالصة، تركت بصمتها في تاريخ عائلتنا.

أما جدي وجدتي لأبي، فكانوا مصريين أصيلين من الصعيد،كانت جدتي ترتدي ملابس بسيطه وهادئه.. آخر مرة رأيتها كنت في المرحلة الابتدائية، وما زلت أذكر طيبتها وبساطة السندوتشات التي كانت تعدّها لي بحب.

ما رأيك أن أشاركك هذا المزج بين الماضي والحاضر والمستقبل؟ ليس مجرد حكايه ،بل محاولة لفهم أجيال مضت وأجيال تأتي، وكيف تخلق النزاعات النفسية والفكرية عالمًا يبدو أكثر جنونًا مما نتخيل.
جاء وقت التعريف... أنا السيد حنفي.. لا تسألني لماذا اخترت هذا الاسم، القصة طويلة ومليئة بالتفاصيل التي قد تثير اهتمامك.. لكن لنقل إن "حنفي" كان خيارًا فرضته عليّ الحياة، أو بالأحرى، انصياعًا لأوامر السيدة الجليلة ذات الهيبة، تلك الزوجة الربع بدينة التي تسكن البيت وتملأه بتعليماتها التي لا تناقش، فتجدني أردد اسم "حنفي" كنوع من السلامة، أو ربما كبطاقة هوية جديدة لرجل قرر أن يرفع الراية البيضاء!

هل يبدو لك الأمر سخرية ؟لا بأس... تعوّد أن ترى الأمور من زاوية أخري، فالحياة مع السيدة "حنفية" لا تحتمل غير ذلك.
لدي صديق واحد فقط، يُدعى أسعد، وهذا يكفيني تمامًا، لأن الكثرة تفسد العلاقات! يجب أن تعلم أن التناقض هو سر استمرار صداقتنا.. لو كنا متشابهين في كل شيء، لما وجدنا ما نتناقش حوله، وتحولت صداقتنا إلى روتين ممل.

أنا أحب الهدوء؟ وهو يعشق الصخب.. أنا أتجنب الجدال؟ وهو يحوّل أي نقاش بسيط إلى مناظرة طويلة.. حتى ذوقنا في الطعام مختلف، هو يرى أن اللحم هو أساس الوجود أما أنا أري أنه شيء ثانوي.

لكن صدقني، لو كنا نسخة واحدة من بعضنا، لما وجدنا شيئًا نناقشه سوى: "كيف حالك؟ كما هو الحال في كل مرة!" أما الآن؟ كل خلاف بيننا يصبح مغامرة، وفي النهاية نضحك معًا بلا توقف.. التناقض؟ هو التوابل التي تجعل الصداقة طيبة!

أيام الشباب

تخرج أسعد من كلية الحقوق بدرجة امتياز، بينما كنت أنا أحاول النجاة بصعوبة من أمواج كلية التجارة.. كان أسعد دائمًا ذلك الشخص الذي يبدو أن الحياة تفتح له الأبواب تلقائيًا، بينما تضع أمامي متاهة من العقبات.. وبرغم ذلك، قرر بكل عبقرية أن يرفض النيابة، قائلاً إنها "لا تريده"، واختار البحث عن العمل في الشؤون القانونية بأحد البنوك، حيث أصبح متخصصًا في كتابة الخطابات الرسمية الطويلة وإبهار الجميع ب إلمام القوانين لكنه ينتظر الفرصة للقبول ولكن يجب أن يواكب سوق العمل فى ذلك الوقت.

أما أنا، فكنت بالكاد أفهم معادلات المحاسبة، لكن أسعد لم يتركني لحالي.. أصر أن نأخذ كورسات في اللغة الإنجليزية، مدعيًا أن العالم لن يُدار إلا بلغة شكسبير.. ولأنني لم أتحمل سخريته المتواصلة من انجليزيتي الركيكة، وجدت نفسي جالسًا بجواره في الكورس، أتعلم معه كيف أقول "I am busy" دون أن أضحك.

ثم جاءت نبوءته العجيبة عن قسم الحاسب الآلي، حيث قال لي يومًا:

- **اسمعني، المستقبل كله حواسيب، وإذا لم تتعلم الآن، فستكون مثل رجل يحمل شريط كاسيت في زمن الهواتف الذكية!**

ورغم سخريتي منه وقتها، إلا أنني لحقت به كالعادة.. ونصحنى بأخذ كورس محاسبة دفترية وأخذته في النهاية، تخرجنا ومعنا لغة ممتازة وبعض المهارات في الحاسب الآلي، وأهم من ذلك كله، ذكريات عن رحلة طويلة مليئة بالنصائح "الحكيمة" لأسعد، والتي كنت أطبقها كأنني مساعده الشخصي.. وبرغم كل شيء، كان هذا الرجل هو أفضل استثمار في حياتي.

رغم ذكاء أسعد الذي لا يخفى على أحد، إلا أن لديه شغفًا لا يُقاوم بالمظاهر.. كان يرتدي أفخم الساعات، التي يبدو أن وظيفتها الوحيدة هي أن تخبر الناس كم هو ثري، أما الصالونات، فكانت بيته الثاني، حيث يذهب بلا تردد لعمل ما يسميه "المساج السحري"، وكأنه رجل أعمال عالمي يتعافى من صفقات المليارات، مع جلسات ماسكات لا تنتهي تجعل وجهه يلمع كالمرآة.

أسعد كان يعتقد أن الوسامة هي مفتاح الحياة، وكان مصممًا على طغيان وسامته رغم بشرته السمراء، التي كان يصفها بـ"سُمرة أصيلة".. أما أنا، فكنت أراه يجمع بين وسامة مفرطة وميزانية منهكة، وكثيرًا ما كنت أتساءل: "هل ينوي إعلان نفسه كعارض أزياء قريبًا؟"

ومع ذلك، كان لديه قدرة عجيبة على إقناعنا بأنه يفعل كل هذا "للاستثمار في الذات".. وبيني وبينك، لم أكن أجرؤ على الاعتراض، لأن الرجل كان يعامل وسامته وكأنها مشروع قومي!

سعاد، أو كما كنتُ أسميها سرًا "الفتاة الخارجة من مسلسل كارتون"، كانت حلمًا يتسابق عليه شباب المجمع.. تلك الفتاة الحديدية، المتفوقة، ببياضها اللامع وعيونها العسلية التي كانت كافية لإسكات أي جدال.
أيام الجامعة، كانت ترتدي موضة الألفية بامتياز: الفستان الواسع الطويل الذي جعلها تبدو وكأنها أميرة خرجت من كتاب خيالي لكن ما كان يؤرقني كمية التراب الوطني التي تذهب به إلى منزلها كل يوم وكت أقول "كناسة الجامعة"

أسعد، كعادته، لم يلاحظ الأمر.. كان يراها مجرد زميلة عادية فى الكلية المجاورة وزميله صديقه الوحيد التي انضمت للشله مؤقتاً.. لكن القدر قرر أن يلعب لعبته، عندما قامت سعاد بمساعدتنا في تقديم أوراقنا إلى البنك، بفضل "الواسطة السحرية" لعمها.. هنا، بدأت قصة حب فرضتها الظروف أكثر من

المشاعر، وعلمت أنني كنت سلم أرادت سعاد أن تصعد به الي حبيب القلب أسعد.

أسعد، الذي كان ينكر دومًا فكرة الارتباط في العمل، بدأ يتغير.. وبالطبع، كنت أنا المستفيد الأكبر من هذه القصة الرومانسية غير المخطط لها.. فبفضل "سعاد" (كنت أسمي هذا الثنائي البجعتان) حصلت على فرصتي الذهبية، بينما كنت أتابع تطورات علاقتهما وأتساءل: "هل أنا جزء من مسلسل درامي، أم أنني مجرد كومبارس في حكاية حب أبطالها لا يعرفون أنهم ممثلون؟"

سعاد كانت فتاة متطورة وذكية لدرجة أنها كانت تصنع ملابسها بنفسها، وهو ما جعلني أعتقد يومًا أن كل النساء هن مجرد نسخ باهتة من "سعاد".. كانت مثالًا حيًا على الإنتاج الذاتي والتوفير، وربما لهذا السبب قرر أسعد، في الرابعة والعشرين من عمره، أن يتزوجها، وهي في العمر ذاته، وكأنهما عقدا اتفاقية شراكة أكثر من زواج.

الملحمة

يوم إعلان الخبر كان ملحمة! أسعد دخل بيتنا وكأنه صاحب المكان، لا سلام ولا كلام، بالحذاء مباشرة إلى الصالون، مما أثار غضب أمي التي كانت تردد في سرها: "من هذا الذي يقتحم البيوت بلا إذن.؟..خسارة لم تعلمه توحه أدب الزيارة "

ثم، كعادته القبيحة، دخل غرفتي دون استئذان، وقال بكل ثقة: "سأتزوج سعاد!" حاولت استيعاب الصدمة، لكنه استرسل وكأنه يقدم تقريرًا مفصلًا: "أمها تتودد إلى أمي، البنت معها شقة، الفرش بالنصف، والشبكة دبلة وخاتم فقط.. لديها أخ أصغر منها بعشر سنوات، ودي ميزة لأنني لن أتحمل كلام عائلة كبيرة كفى عمها!"

لم أجد في نفسي إلا أن أبتسم وأقول: "جميل، على بركة الله... عقولكم متطابقة!" وبينما كنت أفكر في مدى "الصفقة" التي عقدها أسعد، كانت أمي في المطبخ غاضبة من حذائه الذي لا يزال يترك أثرًا على السجاد!

ولم يتوقف الأمر عند ذلك.. قرر أسعد أن يأخذني معه لمقابلة سعاد وأهلها، وكأنني كنت مدير أعماله أو وسيطًا في هذه "الصفقة".. ذهبنا إلى منزلها، وهناك قابلت أمها، التي كانت تتصرف وكأننا وفد رسمي جاء يعقد معاهدة سلام، تقدم لنا الحلوى والعصائر، وتلقي النكات اللطيفة عن الزواج وكأنها تحاول الترويج للبضاعة.

سعاد، بدورها، كانت جالسة بكامل أناقتها في زاوية الغرفة، تمسك بكتاب يبدو أنه أحد كتب التنمية البشرية، لتؤكد أنها ليست فقط جميلة، بل مثقفة أيضًا.. أسعد كان منبهرًا، وأنا كنت أحاول أن أفهم: هل هذه جلسة تفاوض أم خطوبة

ام تعارف او قراءة؟احيانا يجب أن ترسم اللوحه لكن يجب أن تكون واقعية وفي مكانها الصحيح اتينا لنتعارف لا للقراءة .

بعد ساعات من المجاملات، عاد أسعد معي إلى المنزل وهو يكاد يطير من الفرح.. جلس في غرفتي مجددًا (دون استئذان، بالطبع) وقال: "رأيت كيف أنها كاملة؟! لديها شقة، أمها لطيفة، وأخوها الصغير يذاكر في صمت.. هذه هي العائلة المثالية، وهذه هي الزوجة المثالية!"

أما أنا، فكنت أفكر في شيء واحد: "إذا كان هذا الزواج جيداً، فمتى ستبدأ فصول الدراما الحقيقية؟"دائما اسعد يذكر" معها الشقه " فأنا كنت متأكدًا أن أسعد لا يمكن أن يمر بأي شيء في حياته دون أن يترك بصمته الخاصة من الفوضى والسخرية!لكن هذه المرة كان العقل هو المتحكم في اختياره.

والدة أسعد كانت سيدة ميسورة، لكنها كانت بخيلة لدرجة أنها تخاف على كل شيء، حتى المسمار! كان لديها مبدأ اقتصادي لا يرحم، فإذا أردت المذاكرة عندهم، كان عليك أن تجلب معك العشاء والفاكهة والمشروبات، وكأنك قادم من أجل تقديم خدمة للطعام أكثر من أجل الدراسة! وكان الكوب نفسه يُغسل بشكل "اقتصادي"، بحيث إذا تم غسله بشكل مفرط، كانت تنظر إليك وكأنك قد ارتكبت جريمة ضد المال العام.

لكن أكثر ما كان يدهشني هو أسلوبها في "توفير" مسحوق سائل الأطباق.. كانت تخففه بالماء بطريقة عبقرية، بحيث تحول لترًا من المسحوق إلى أكثر من لتر واحد! كنت أراها تضع الكميات الصغيرة بحذر في زجاجة كبيرة، ثم تملأ الباقي بالماء بحذر شديد، وكأنها في مختبر كيميائي يختبر تركيبات جديدة!

أما عن شخصيتها، فقد كانت مزيجًا من الحزم والتسلط، دائمًا تراقب كل شيء.. حتى لو جلبت كوب ماء "زيادة" عن الحد المسموح به، كنت أجدها تنبهني كأنني ارتكبت خطأ فادحًا في الحسابات.. كان كل شيء تحت المراقبة الدقيقة والمسكين والد أسعد تقول له: هل جلبت الفاكهة والكمية المثالية؟ هل الكوب المغسول هو الأنسب؟
وإذا أخطىء في شيء، كانت تنتظر الفرصة لتعلق على كل تفصيله صغير بدون كلل أو ملل.

كنت أضحك في سري وأقول: "ربما لو كانت وزارة الاقتصاد العالمي تستعين بها، لكان الوضع الاقتصادي أفضل بكثير حول العالم!"

يوم الخطوبة

لا أستطيع نسيان أول يوم عزومة لأسرة سعاد، وكان بالطبع أسعد يريد مني أن آتي مع أمي، فكانت أمي أمينه، الصديقة المقربة لأم أسعد، التي لا تفارقها أبدًا.. ليس لأنها طيبة القلب فقط، بل لأنها كريمة بشكل غير طبيعي، وكأنها لا تعرف معنى "الحدود".

أم أسعد كانت قد أعدت لنا قائمة طلبات طويلة، كأنها كانت تجهز لمهرجان وليس عزومة.. طلبت من أمي الطقم الفضة ملك الأجداد، وأكوابًا منقوشة برسومات من النحاس، وطقم كاسات، وكأننا جئنا لتقديم الهدايا بدلاً من الطعام! وأمي، التي لا ترد طلبًا، قالت لي: "ضعهم في شنطة العربية!" وكأنني كنت أسوق شحنة تجارية إلى مكان غير معروف.

ثم جاء الجزء الممتع: طلبت مني أمي التوقف أمام حلوانى مشهور لشراء الحلويات والمشروبات.. سألتها بتردد:

- من سوف يدفع عننا؟"

أجابت ببساطة:

- أنا، هي توحه تستطيع الدفع!" أتعلم، لو دفعت، ستكون قد ارتكبت جريمة ضد القيم الأخلاقية، وكأنني تجرأت على خيانة الصداقة "الاتفاق الغير مكتوب" بين الصديقات!

وبعد أن أكملنا جميع الطلبات، ذهبنا جميعًا لقراءة الفاتحة في مكان غريب...في المستشفى! رغم أن العزومه لتعارف الأهل والأمهات ، كأن قراءة الفاتحة أصبحت أمرًا طبيًا يتطلب تدخلًا سريعًا! وكأننا في حالة طوارئ، وكان على الجميع أن يوقعوا على شهادة صحية قبل أن يدخلوا القفص الزوجي.

كل هذا حدث وكأننا في عرض كوميدي.. وكأن الحياة قالت لنا: لا مشكلة في أن تخلطوا بين الأفراح والأمراض! وكل شيء سيكون على ما يرام طالما أن هناك حلويات على الطريق!

أم أسعد كانت ذكية لدرجة أنها قررت تخطي مرحلة الذهاب لأهل سعاد بشكل مباشر، وكأنها كانت في مهمة رسمية، ونفذت قراءة الفاتحة في المستشفى! نعم، في المستشفى، كأنها كانت تقوم بفحص طبي قبل الزواج.. أما عن الهدايا للعروس، فقررت أن تتغاضى عنها وكأن العروس لا تحتاج أكثر من "النية الطيبة"! ،قررت توحه أخذ الشربات والحلويات التي كانت قد أحضرتها أمي حتى تُبقِيها لنفسها وزوجها وأسعد، المحروس! كانت تأكل منها وكأنها في حفلة خاصة بها، بدون أي حرمان، ولا حتى نظرة شفقة على الآخرين!

تعجبت أمي من تصرفات "توحة" ولم تصدق أن البخل قد يصل بها إلى هذه الدرجة! في اليوم التالي، بعد يوم طويل من العمل، وقبل أن أخلع نعل حذائي، سمعت صوت أمي تقول:

- **أنزل الآن، يجب أن تأخذ الأطقم من بيت توحة حتى لا تذهب بلا رجعة!" وكأن الأطقم أصبحت كنزًا مفقودًا في حاجة إلى استرجاع سريع!**

وعندما ذهبت إلى بيت "توحة"، طرقت الباب وأزلت نعلي كما هو معتاد في الزيارات ، ثم طلبت من أسعد أن يحضر الأطقم.. لكن "توحة" طقطقت بزعل وقالت:

- **كان هناك ضيوف اليوم، ألم تنتظر قليلاً؟**

وكأنني حضرت لتناول الطعام أو الشراب! كان من الواضح أنني كنت أزعجها في وقت غير مناسب.

قلت بسرعة:

- **آسف، عمي سيحضر بعد ساعة، وأنتِ تعلمين أنه كريم معنا!**

وكأنني أقدم لها تأكيدات حول مدى أهمية الموعد.

قالت:

- نعم، انتظر.

ثم ظننت أنها ستعرض عليَّ على الأقل قطعة جاتوه أو كوب شربات، كما كان يحدث في الزيارات خصوصاً أن الجاتوه والشربات من جيب أمي الخاص.. لكن أسعد، الذي كان يضحك بخبث في زاوية الغرفة، قال مبتسمًا:

- كنت أظنك ستأخذ الجاتوه!

ثم أضاف

- لا تقلق، قريبًا العفن يظهر وسوف نأكل منه.

لكن ما لا يعلمه أسعد، أن "توحة" لن تعطي أحدًا شربات أو جاتوه حتى لو العفن ظهر! فقد كانت بخيلة لدرجة أنها لن تسمح لأحد أن يقترب من حلوى ضيعتها عليها حتى ولو كان الزمان "زمان الكرم"!

في أول خروجة له مع سعاد، قرر أسعد أن يأخذها في فسحة جهنمية، لا أقل ولا أكثر.. لكن المفاجأة الكبرى كانت أن والد أسعد أعطاه خمس جنيهات فقط، رغم أن أسعد كان يتخيل أنه سيحظى بمبلغ يكفي لتغطية رحلة لرفاهية غير محدودة.. السبب؟ مرتبة ذهب بالكامل منذ اليوم الأول على الملابس والعطور والخروجات مع أصدقائه على الكافيهات، مما جعله يبدو كأن عقابًا وقع عليه من والديه.. ورغم شح الوالدين في الإنفاق، إلا أن أسعد كان دائمًا سخيًا للغاية، ولا يفكر في المال مثلهم.

أذكر جيدًا حين حصل أسعد على أول مرتب له، كان هو المصرف الوحيد على "الشلة"، فكلما اجتمعوا، كان هو الذي يتحمل المسؤولية.. وكان الجميع يعامله وكأن جيبه لا ينضب، وكأنه "بنك أسعد" المتنقل.. أحيانًا كنت أظن أن أصدقائه لا يرون فيه إلا آلة لصرف النقود، ولا يعرفون كم الإهانات التي يتلقاها أسعد

حتى يحصل على الجنيهات من والديه، الذين يعتقدون أن المال هو أثمن شيء في العالم.

وعلى الرغم من تفوقه، كان أحيانًا يأخذ المال من دولاب والده، دون علمه، و بمبالغ كبيرة..وعندما يكتشف الأب، ينكر أسعد تمامًا، ويقول:

- لم أخذ شيئًا من الدولاب!

أما الأب بسبب بخله المفرط جعله يخاف حتى من وضع المال في البنك رغم تكرار السرقه، وكأن هناك خطرًا يترصده.."الحسابات المصرفية؟ لا، الأفضل أن أضع المال تحت الوسادة!"

سعاد، الفتاة التي كانت عيونها ممتلئة بالحياة أكثر من أي وقت مضى، نزلت مع "أسعد" في هذا اليوم، واكتفت بمشروب كوب القصب، وكأنها تجد سعادتها في أغلى العطايا، ثم قامت بتناول الترمس وكأنها تتذوق طعم النصر على العالم بأسره.. كانت سعيدة، بل سعيدة لدرجة أن الجملة الوحيدة التي تخطر ببالها هي: اليوم، حتى الفقر أصبح كنزًا!.

سعاد كانت كالنجمة التي تشرق وسط سماء من البساطة، عيونها تلمع كأنها اكتشفت كنزًا ثمينًا في كوب القصب الذي في يدها، وأخرى تحمل فيها الترمس كما لو أنها ملكت العالم.. ابتسامتها كانت أكبر من الكلمات، وحركتها كما لو أن كل ما في الكون يتوقف ليشهد هذه اللحظة السعيدة التي لا تقدر بثمن.. كأنها تكتشف لذة الحياة في أبسط الأشياء، وتعيش في عالمها الخاص، حيث الفقر يتحول إلى ثروة غير محدودة.

المستنقع العاطفي

حياة أسعد وسعاد كانت كفنًا بكل معنى الكلمة..بدأت الحياة بينهم تتأزم بمرور الوقت، وصدقوني، الأمر معقدًا ولكن ليس بسبب سعاد.. قبل الزواج، كانت هناك بعض "التجاوزات" التي جعلت سعاد تبدو وكأنها في مزاد علني أمام أسعد، وظهر هو يتفاخر بأنه يستطيع حمل بنات الناس كما لو كانوا أكياسًا، يوزعهم على هواه ورهن إشارته! و الأفظع من ذلك كان السلف المستمر من أموالها، وكأن محفظتها مصممة فقط لتلبية احتياجاته.. سعاد، بالطبع، كانت تُعطي عن طيب خاطر، كما لو كان هناك نوع من "السعادة" في منح المال لشخص يستغلها هكذا.. كنت دائمًا أرغب في أن أنصحها، لكنني كنت عاجزًا عن ذلك، وكأنني جالس في مقعد المتفرج، أراقبها وهي تغرق في هذا المستنقع.. الغريب أن الست توحة كانت تفتح بيتها لسعاد بدون علم أم سعاد، وكأنها تفتح لها بابًا لتجاوزات جديدة.. لا أنكر أن سعاد كانت مخطئة في اتخاذ تلك القرارات، لكنها كانت مثل العمياء في هذا المشهد.. المشكلة الأكبر أن هذا النوع من التسلط جعل البنات في الميدان، وكأنهم مجرد قطع شطرنج يتلاعب بها الخبثاء!

المؤسف أنها كانت كالمرآة التي تعكس كل المشاكل، لكنها مرآة مشوشة! حتى عندما كانت تشعر أن هناك شيئًا غير صحيح، كانت تقول:

- **لا يوجد شيء، كل شيء على ما يرام**

وكأنها في مسلسل درامي، لا أحد يستطيع إخراجها من هذا المأزق.. والأسوأ من ذلك، كانت تظن أن كل ما يحدث هو "حب" و"اهتمام".. كنت دائمًا أقول لها:

- **كيف تحبين شخصًا يلبس نظارة شمسية في الليل؟**

لكنها كانت ترد:

- لكنّه جميل

كانت تتفاخر أمام صديقاتها بأن أسعد "مغرم" بها، بينما كان هو مغرم فقط بـ"بطاقتها الائتمانية".

أما الست توحة، فكانت الرفيقة المثالية في هذا العرض المسرحي.. كانت تجد متعة في مشاهدة سعاد وهي تحت اقدام أبنها فاستغلت الوضع واعطتها "دورة تدريبية" لتعليمها كيفية تحويل المال إلى هواء! حتى لا يفتش اسعد جيبهم..وكانت تفعل كل ذلك تحت شعار "نحن نساعدكم حتى يتم الزواج بسلام"، بينما هي كانت تجني الفائدة ، ولك أن تتخيل المشهد، سعاد تجلس على الأريكة، تظن أنها في "جنة" بينما هي في ورطة.

في الحقيقة، لا يمكننا لوم سعاد تمامًا.. كلما حاولت الخروج من هذا المستنقع العاطفي، كان أسعد يظهر مبتسمًا، قائلاً: "أنتِ لستِ وحدكِ، أنا معكِ"..

كأن هذا وحده يكفي لإسكات صوت عقلها الذي يصرخ:

"أفيقي يا فتاة، هذا ليس حبًا، بل نُسخة مشوهة منه!"

ولكن سعاد، مثل كل مرة، انغمست في الحلم الوردي ذاته:

"أنا حبيبة بطل خارق، وهذا رجل من أفضل الناس".

أسعد، من ناحيته، كان يخطط للمرحلة التالية بمهارة مستغل محترف.. فكرة السيارة بالقسط كانت عبقرية بالنسبة له،الفتاة تملك شهادة محترمه وبها يتم القرض لأجل السيارة، لكنه واجه عقبة واحدة: أم سعاد.. تلك المرأة التي تحمل مزيجًا من الحذر والتجارب الحياتية، أصرت على أن تكون السيارة باسم ابنتها.. فنظر أسعد الي سعاد بعدما علم بقرار امها وقال"لكني أحبك يا سعاد ولا يهم "، قالها أسعد، ممثلًا دور الحبيب المتفاني، بينما كانت أفكاره تقول:

"لا بأس، سنعيد ترتيب الأوراق لاحقًا".

ورغم هذا، لم يلاحظ أحد كيف تحوّلت سعاد، الفتاة المتفوقة في حياتها، إلى نسخة باهتة من نفسها.
"مرآة الحب عمياء وسوداء أيضًا"، همست أمها لنفسها، وهي تراقب ابنتها تنحدر إلى هذا الوهم البائس.

استمرت قراءة الفاتحة ستة أشهر أخرى، لكنها لم تكن سوى سلسلة من المناورات المالية.. أسعد، الذي احترف البقاء فقيرًا رغم كل المحاولات، أقنع سعاد بشراء السيارة كخطوة أولى، قبل أن تقفز أمه على الخط الهاتفي لتضع مبلغًا زهيدًا لشراء الخاتم والدبلة.. فقالت سعاد بداخلها
"عليكِ أن توافقي يافتاة المهم أن أكون معه"
افاقت علي صوت اسعد وهو يقول بحماس زائف:
- سنجعلها مفاجأة! لا تقولي لأمك.

لكن المفاجأة الحقيقية كانت في وجه أم سعاد حين اكتشفت الخطه لم تحتج ب كلمة واحدة؛ نظرتها كانت كافية لتقول:
"ستندمين غدًا يا ابنتي، وحينها لن ينفعك بطلُك الخارق،بعد كل ما انفقتيه دبله وخاتم بربعمائة جنيهاً.

وفي نهاية المسرحية، بقيت سعاد الخاسرة الوحيدة، تتقلب بين مزيج من حبها الأعمى وسخرية الناس من تراجيديتها ، أما أسعد؟ فقد استمر بابتسامته الماكرة، يخطط للخطوة التالية، لأن الخيال ليس الشيء الوحيد الذي يتمسك به في هذه العلاقة..مرت ثلاث سنوات، وسعاد اكتشفت أخيرًا أنها لم تكن في قصة حب عظيمة كما أوهمت نفسها، بل في "لعبة الشطرنج" من تخطيط توحه، أم أسعد، التي أثبتت أن "العبقرية الشعبية" يمكنها التفوق على أي استراتيجيات احترافية.
أدركت سعاد أنها كانت تمشي على خيط رفيع من الأوهام، حمدت الله أن الكارثة لم تصل إلى ما هو أبعد من الأخطاء العاطفية، فـ"عذريتها الجسدية" كانت

محفوظة، أما "عذرية الروح" فقد ضاعت مع الرياح، أكانت شمالية أم سطحية؟ لا يهم الآن لأنه تم الزواج حتى لا يرتدي القميص المقطع شخص غلبان ولله الحمد.. لكن كان هناك خطه!

خطة الزواج

قررت سعاد أخيرًا أن تضع حدًا لهذا العبث.. انسحبت من المشهد بهدوء، وامتنعت عن الرد على مكالمات أسعد، تاركة له مساحة للتفكير... وفقدان صوابه.. حاولت توحه التدخل، لكن "الحرب النفسية" كانت أقوى.. لم يهتم بأمر السيارة المركونه أمام بيت أم سعاد بناء عن طلبها.
و أمام هذا الصمت المهيب، بدأ أسعد يشعر بشيء جديد، الحب.. نعم، الحب الذي يظهر عادة بعد غلق الحبيب الباب.

جمع أسعد شجاعته وذهب الى مكتبها وسألها مباشرة وانا انظر مبتسماً:
- ما الحل؟ أنا احبك، ولا استطيع العيش بدونك..
أجابته سعاد ببرود مصطنع، بينما ترتشف قهوتها:
- الحل؟ اشترى نجف الشقة..

اعتقدت لو طلبت شيء أكثر قيمة لفعل لكنها تعلم أنه لن يستطيع الاعلى النجف.
لم يفكر كثيرًا.. في أول الشهر، أمسك بمرتبة وصرفه بالكامل على "نجف المحبة".. لكن توحه، التي لا تفوت فرصة، أحضرت له الادوات الكهربائيه استعمال خفيف كهدية للعروسين وكان أضحوكة.

في الشهر التالي، وجدت سعاد طريقة أخرى لتصعيد اللعبة، فأشارت إلى امها حتى تتصل وتطلب العفش، على الفور، أرسلت أم سعاد "رسالة ديبلوماسية" مشفرة وقالت:
- العفش لازم يكتمل..
ردت توحه بكلمات هادئة، تحملت فيها عبء الدور الاجتماعي الكامل، قائلة لها:
- أحمدي الله نحن نستر بنتك من الفضائح.

يقص اسعد علي ما حدث وقلت له:

- حرام يا اخي

وهو ينظر ويضحك بسخرية كأنني شخص ساذج ..

وبينما كان الكل يعتقد أن اللعبة انتهت، أكملت سعاد التحرك الأخير.

تكفلت ببقية الأثاث بنفسها، لتصبح "العروس الكاملة"، بشقة جاهزة وعفش يشبه قصص ألف ليلة وليلة.

أما أسعد، فقد جلس على الأريكة فى الشقة الجديدة بعد نقلنا للعفش، تأمل النجف اللامع، وهو يردد لنفسه وانا مبتسم كعادتي:

- الزواج صعب... لكن توحه أصعب.

"اي صعوبه يا هذا شقه وعفش سبحانه" قلت تلك الكلمات وهو غارق فى وضعه الجديد.

ما بعد خطة الزواج

قبل أسابيع قليلة من الزواج، أعلن أسعد قراره بحزم لا يقبل النقاش وقال:

- سعاد، عليكِ أن تتركي العمل.. أنا رجل لا أقبل أن تختلط زوجتي بأحد.

كان كلامه أشبه بحكم صدر غيابيًا، فابتسمت سعاد بمرارة تخفي خلفها قلقًا مما ينتظرها.. لقد كانت تعتمد على الشهادة البنكية التي ورثتها عن والدها الراحل بجوار عملها، وها هي تُدفَع للتخلي عن مصدر دخلها الثاني لتدخل تحت جناح رجل يحب عطره وأناقة ثيابه أكثر مما يحب تحمل المسؤولية.

يوم الزفاف

يوم زفاف أسعد وكأنه لوحة كوميدية لا تُنسى، مليئة بالمواقف الغريبة والتفاصيل المثيرة.. الحاجة توحه، أم أسعد، قررت أن يكون حفل الزفاف بسيطًا ومتواضعًا، وأصرّت على إقامة مراسم الزواج في المسجد.. بدأ هذا خيارًا مريحًا للجميع، خاصة أن سعاد كانت توافق بلا نقاش، كأنها تخلّت عن حقها في الاختيار.

لكن كل من حضر الزفاف شعر بأن هذا "الرضا المطلق" من جانب سعاد لم يكن طبيعيًا. ومع مرور الوقت، بدأ الهمس يتصاعد بين النساء: "أكيد الحاجة توحه عملت شيئًا."

وبالفعل، لم يكن ذلك محض خيال.. بعد فترة قصيرة، وبينما كنت أتبادل الحديث مع أم سعاد، كشفت لي عن مفاجأة غير متوقعه..قالت بنبرة ساخرة ومليئة بالثقة:

- رأيت الحاجة توحه وهي ترش شيء ما على قطن ابنتي قبل التنجيد.. وعندما سألتها، قالت لي: ده رشوش يعجل بالزواج ويثبت العريس..
كانت تلك اللحظة مزيجًا من الدهشة والضحك، فبدلًا من أن يكون الزواج قائمًا على الحب والتفاهم، بدا أنه مسرحية تحكمها "تعاويذ" و"رشوش"!

المشهد الأخير

بعد انتهاء الفرح، قررت أن أدعو أسعد وسعاد في الأسبوع التالي إلى نزهة على الشاطئ مع العائلة والاصدقاء.
اشتريت ارزًا باللبن من محل شهير ليكون وجبة خفيفة ولطيفة بعد الدجاج المشوي، واحضرنا كاميرا لالتقاط الصور التذكارية.. الجو كان ممتعًا، لكن أم سعاد بدت متوترة وتعاني من صداع واضح.. طلبت من النادل كوب قهوة مظبوط.

أسعد، بحركاته المعهودة التي تمزج بين الجد والهزل، قفز النادل ليعدل على طلب القهوة بنفسه.. لكنه عاد بعد دقائق يحمل كوبًا من القهوة السادة بدلًا من "المظبوطة". اعطي الكوب لأم سعاد وقال:
- اقرئي الفاتحة يا حاجة.

صمتت أم سعاد وهي تنظر إلى الكوب بريبة، بينما أنا وقفت بجانبها أحاول تهدئتها:
- اطمئني، هو لا يفعل شيئًا، هو فقط يتكلم.. كل ما في الأمر أنه يحب أن يشعر أنه يتحكم.

لكن أم سعاد، بخوفها الفطري على ابنتها، لم تهدأ.. أسعد اكتفى بابتسامة غامضة، وعاد إلى مقعده وهو يضحك لنفسه كأنه حقق نصرًا صغيرًا.

في تلك اللحظة، لم أستطع إلا أن أتساءل عن كم الجبروت الذي يسكن هذا الرجل! هل هي قوة حقيقية أم مجرد وهم صنعه ليحكم الجميع؟ وبرغم ذلك، لم أستطع إنكار شيء واحد: أسعد، بطريقته المعقدة والمثيرة، كان دائمًا مصدرًا للدهشة... وللضحك أيضا.

مرت الأيام، ووجدت سعاد نفسها في دوامة لم تتوقف.. أصبحت ربّة منزلٍ بلا اختيار، تستيقظ كل صباح لتُعدّ الفطور وتأخذ الأولاد إلى المدرسة، ثم تعود لتخوض معارك المذاكرة بلا وسيلة لتخفيف العبء كالدروس الخصوصية التي تتجاوز إمكانياتهم المادية.. وفيما هي منهمكة بأعبائها، كان صوت أسعد يصدح من بعيد بأوامره المعتادة:

- **أين الشاي؟ هل أعددتِ الفطور؟ أين قهوتي؟**

وكأنما كانت الحياة قد رتبت هذا المشهد بعناية ساخرة، فقد تحولت سعاد من امرأةٍ عاملة مستقلة إلى خادمة مجانية، تحت ظل رجل يُبشّر بعدم صفات المسؤولية.. بالإضافة إلى عدم تحملها.
لم تكن حوارات أسعد وسعاد لتصل إلى نهاية، وكأن الحياة بينهما مشهدٌ عبثي ممتد بلا خاتمة.. لكن دخول "الست توحة"، حماتها، على الخط كان كفيلًا بإشعال المسرح العائلي.. كانت توحة تزور سعاد بحجة الاطمئنان على الاحباب، لكنها في الواقع تحمل معها دائمًا شحنة مشكلات جاهزة للتفريغ، وكأنها تمارس هوايةً قديمة.

الطريف في الأمر أن زياراتها لم تكن عشوائية؛ إذ كانت تنسق مواعيدها مع أم سعاد بشكل ساخر، وكأنهما تُخططان لمؤامرة محكمة.. تدخل توحة المنزل بابتسامة ودودة تقول:

- **سعاد، أتينا لزيارتك قليلًا... لا نريد أن نشغلكِ، يا عزيزتي.**

ثم تبدأ بتحويل البيت إلى ساحة تقييم، تتجول بين الغرف وكأنها تُراجع قائمة مهام لم تُنفذ:

- البنت لا تزال ضعيفة فى مثل عمرها! لماذا لا تُعدين طعامًا كالذي كنت أعدّه لأسعد؟ والشرفة؟ يبدو أنها تحتاج تنظيفًا عاجلًا!

وام سعاد تعطي كلمات الرصاص بحذر لتوحه

أما أسعد، فقد كان سيد الغياب.. ما إن يشعر بقدوم أمه، حتى يختفي كأنه لم يكن يومًا موجودًا، تاركًا سعاد وحدها تواجه إعصار توحة.. كانت سعاد تجلس صامتة، تُراقب بحذر، وتُحدث نفسها ساخرًة:

- لو أن زيارة الحماة تُحسب بالساعة، لكنت الآن مدينة لها بثروة!"

تقبلت سعاد حياتها على مضض، فهي لم تعد ترى جدوى في الاعتراض أمام شخصية كـ أسعد، خصوصًا بعدما زادت اعتراضاته عليها بسبب إنجابها البنات فقط.. وكأنما البنات خرجن من مسؤوليتها وحدها، أما هو، فكان يكتفي بإطلاق تنهيدة عميقة مصحوبة بجملة شهيرة:

- يا رب ولد... يشيل اسمي بعدي!"

وكنت أتساءل يشيل ماذا الفشل والجيب الفارغ!

لكن القشة التي قصمت ظهر البعير كانت توحة نفسها.. إذ لم يكتفِ الأمر باقتحام حياتها وانتقاد كل صغيرة وكبيرة، بل بدأت الأم الحنون في البحث عن "عروس مليانة" للمحروس أسعد، بحجة أنه بحاجة إلى من "تدلله وتحضر له الولد الذي يشتاق له".. كل ذلك وسعاد كانت في غيابٍ تام عن الحدث، وكأنما أُقصيت من حياتها لصالح لجنة قررت مصيرها نيابة عنها.

كانت توحة تتنقل بين بيوت الجارات والأقارب كأنها وكالة توظيف، تُفاضل بين العرائس المحتملات بناءً على صفات مثل الطول، والطبخ، وعدد الأولاد المتوقع أن تنجبهم.. في حين كانت سعاد تُراقب الموقف من بعيد، تُحدث نفسها قائلة:

- يبدو أنني سأصبح مديرة فرع للعروس الجديدة قريبًا... يا رب تكون محترفة في تنظيف الشرفات!

ورغم أن سعاد أظهرت تقبلها لفكرة زواج أسعد، متظاهرة بأنها مجرد متفرجة لا يعنيها الأمر، إلا أنها كانت تخطط لما هو أمكر وأدهى.. ورغم كونها صاحبة البيت والمسؤولة عن المصروف، اختارت أن تلتزم الصمت، تاركة أسعد يغرق في أوهامه، بينما كانت تجهز لعبتها الكبرى بحنكة بالغة.

عندما وصلتها أخبار توحة ومغامراتها في اختيار "العروس المثالية"، لم تُبدِ أي اعتراض. بل استقبلت أسعد بابتسامة هادئة وكلمات داعمة:

- ربنا يوفقك... أنا واثقة أنك سوف تختار بحكمة.

لم يدرك أسعد أن خلف هذه الكلمات خطة محكمة تنتظر اللحظة المناسبة.

ما إن أعلن أسعد زواجه رسميًا حتى باغتته سعاد بطلب طلاق للضرر، مدعية أنها "آخر من يعلم" بشأن هذا الزواج.. وفي المحكمة، قدمت سعاد أوراقًا وحججًا جعلت أسعد يبدو وكأنه ارتكب جريمة في حق الإنسانية، لا مجرد قرار بالزواج.. وبينما كان يحاول تدارك الموقف، جاء حكم النفقة كالقشة التي قصمت ظهره، بتكاليف تُشبه حُكمًا بتسديد ديون دولة بأكملها.

أما سعاد، فقد عادت إلى بيتها، تُخطط لمرحلة ما بعد النصر، تُحدث زوجتى الاولى بابتسامة ساخرة

- إذا كان الزواج نصيبًا، فالنفقة قصاص عادل، ولعل أسعد يتعلم ألا يعبث مع صاحبة البيت!

القدر

كان العبء على أسعد يزداد يومًا بعد يوم، خاصة مع حمل زوجته الجديدة فتاة أخرى، مما ضاعف مسؤولياته المالية والنفسية.. وبينما كان يحاول الوفاء بمتطلبات الحياة، كانت سعاد في الجهة الأخرى، تحمل في داخلها جنينًا، لكنها قررت ألا تُفصح عنه، وكأنها تخطط لشيء أكبر.

مع مرور الوقت، أنجبت سعاد الولد الذي طالما انتظره أسعد، ولكن كانت المفاجأة الكبرى في غيابه عن هذه اللحظة.. فبينما كانت سعاد تُرزق بمولودها، كان أسعد قد انفصل عن الواقع، مشغولًا في معاركه الخاصة.. لم يكن هناك شيء يربطه بالمشهد سوى فكرة أن الحياة قد أخذت مجراها بما لا يشتهيه.

أما شقة العروس ، فقد أصبحت عبئًا آخر على كاهل أسعد.. الإيجار المرتفع، وتكاليف الصيانة، والحديد الذي دخل في جميع التفاصيل من أثاث وأجهزة كهربائية، كلها كانت تتراكم لتقسّم قلبه ووسطه.. في النهاية، كان الطلاق هو الحل الوحيد الذي بدا حتميًا.. لم يعد هناك مجال للحديث عن الأمل أو التصالح، فالأمور كانت قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، وأصبح الفراق هو النتيجة التي لا مفر منها ومعهم فتاة لا تتعدى الأشهر.

الصديق و الجار

عندما أدركت أن العمل لن يحقق لي "حلم الزواج والبيت السعيد"، قررت أن أغير الخطة وأسافر عند خالي في أمريكا.. وبصراحة، لم أحتمل العيش هناك؛ ليس لأن الحياة صعبة، بل لأنني لم أملك الطاقة أصارع من أجل "الحلم الأمريكي" أو حتى للحصول على الجنسية.. بالنسبة لي، أمريكا كانت مجرد مكان للعمل والكد، أما الحياة الحقيقية؟ فشيء آخر تمامًا.

لحسن الحظ، أسعد ، أو بالأحرى عرّاب الترحال العربي، اقترح عليَّ تجربة دولة عربية قريبة.. ومن هنا بدأت مغامرتي مع "أسعد"، الموظف المحترف في تسهيل كل شيء، خاصة الإجازات.. أسعد كان أشبه بـ"جنّي المصباح"، لكن مع شرطٍ واحد: أن تحمد كرمه وتشكره ب عبارات تصف سخاءه وكأنك تصف رجلاً أعاد بناء العالم من الصفر.

مع الوقت، اكتشفت أن أسعد ليس سخياً بلا مقابل؛ هو شخصية مركبة تجمع بين اليد المفتوحة والأذن المصغية لعبارات الثناء.
كلمة كريم كانت مفتاح التعامل معه، حتى لو كان هذا الكرم أحيانًا مجرد كوب شاي بنكهة "أنا كريم لأنك قلت ذلك".

وبينما كنت أحاول التكيف في وظيفتي بفرع البنك العربي هناك، بدا أن القدر كان يخطط لشيء أكثر تعقيدًا.. العودة إلى الوطن؟ لا، كان لديه سيناريو جديد أكثر إثارة...

عند عودتي من الإجازة الأخيرة، فوجئت بأن القدر كتب لي فصلًا جديدًا من الدراما؛ لم تكن العودة كما خططت.. فرع البنك الذي أعمل فيه قرر أنني "كنز لا يُفرط فيه"، فتم ترشيحي للعمل في فرع آخر بإحدى الدول العربية الأكثر سخونة، سواء من حيث الطقس أو التحديات.

وهنا عاد "أسعد" إلى المشهد، ولكن هذه المرة كان الدور مختلفًا.. رشحني بنفسه للعمل هناك، وكأن حياته لن تكتمل إلا بإرسالي إلى معركة جديدة.. بالطبع، لم ينس أن يُثني على نفسه، مؤكدًا أن هذا القرار كان من محض "كرمه" ورؤيته الثاقبة.

مع مرور الوقت، بدأت أفهم أن أسعد ليس مجرد زميل عادي.. هو معجزة تمشي على الأرض، لكنها معجزة تحتاج إلى التصفيق الدائم لتعمل بكفاءة.. إذا

مدحته، يفتح لك الأبواب؛ وإذا تجاهلته، يتحول إلى حجر عثرة.. تعلمت أن أوازن بين شكري له وبين ضحكاتي الساخرة خلف ظهره.

والحقيقة؟ أسعد كان مدرسًا في فن البقاء.. هو الذي علمني أن العمل ليس مجرد راتب آخر الشهر، بل سلسلة من العلاقات المُحكمة والخطابات المبطنة.. قد تكون شخصية مركبة، لكنه في النهاية جزء من رحلة جعلتني أرى الحياة بعيون مختلفة.

أما عن الحياة في البلد الجديد، فتلك قصة أخرى؛ مليئة بالطرائف، التحديات، وأشخاص يشبهون أسعد، لكن بنُسَخٍ أكثر كوميدية أو ربما مأساوية.

في البداية، كان المكان الجديد أشبه بميدان تدريب القدرات البشرية.. كل شيء فيه صاخب، من حرارة الطقس إلى برودة التعاملات الرسمية.. دخلت البنك في أول يوم لي وأنا أحمل على كتفي وصايا أسعد وعباراتي الجاهزة من المدح والثناء .. لكنني سرعان ما اكتشفت أن "أسعد" ليس شخصية فريدة؛ بل هناك نسخة محدثة منه في كل ركن من أركان البنك.

أحدهم، وكان يُدعى "منصور"، أخذ دور المرشد الأعلى لي في هذا الفرع.. شخصية غامضة تجمع بين اللطافة المشروطة والصبر المليء بالاستعلاء.. كلما أردت استفسارًا عن العمل، كان يبدأ حديثه بجملة:

- انظر،هذا ليس لأجلك ، لكنني أحب أن أساعد الناس.
بالطبع كنت أضطر للابتسام وكأنني أسمع نصيحة غاندي الأخيرة، بينما في داخلي كنت أردد: "يا رجل، أنت لا تساعد أحدًا بدون حساب!".

وفي كل مرة أحاول التأقلم مع نظام العمل هناك، تظهر عقبة جديدة.. كان لي زميل آخر يدعى "فواز"، رجل يمتلك فلسفة الحياة على قهوة عربية قوية..

كان يُصِر على أن الحل لكل مشكلة في العالم هو استراحة قصيرة تتبعها جلسة حوار عميق عن "أهمية الإيجابية". المشكلة؟ أن كل جلساته كانت تنتهي بمزيد من الأسئلة وأقل عدد ممكن من الحلول.

لكن مع الوقت، بدأت أفهم اللعبة.. هنا، لا يتعلق الأمر بالكفاءة أو السرعة، بل بفن العلاقات.. المديح والتقدير هما العملة الحقيقية.. عليك أن تُشعر الجميع بأنهم أبطال خارقون، حتى لو كان كل ما فعلوه هو إرسال بريد إلكتروني صحيح.. ومع ذلك، كان عليّ أن أوازن بين هذه اللعبة وبين الحفاظ على سلامة عقلي؛ لأن كثرة التظاهر قد تؤدي إلى انفجار داخلي لا يُحمد عقباه.

ورغم كل هذا، كان للحياة خارج العمل مفاجآتها.. الإجازات، التي كان يُسهِّلها "أسعد" في الماضي، أصبحت هنا أشبه بحملة عسكرية تحتاج إلى تخطيط دقيق وموافقات أكثر من اتفاقيات الأمم المتحدة.. كل مرة أطلب فيها إجازة، أشعر وكأنني أطلب إذنًا بمغادرة الكوكب.

لكن في النهاية، كل هذه المواقف لم تكن سوى دروس مستترة.. الحياة في البلد الجديد علمتني أن أسعد، منصور، وفواز، وكل هذه الشخصيات المركبة، ليسوا سوى انعكاسات لنظام عالمي غريب: حيث الجميع يُطالب بالثناء ليُكمل دوره، والجميع يدَّعي الكرم وهو يَنتظر المقابل.

هل شعرت بالحنين لوطني؟ نعم.. لكنني أدركت أن هذه التجربة كانت أكثر من مجرد محطة عمل؛ كانت مرحلة جديدة لفهم أن الحياة ليست دائمًا كما نريد، لكنها حتمًا مليئة بالكوميديا السوداء التي تستحق أن نرويها.

مع مرور الوقت، أصبحت حياتي في البلد الجديد أشبه بمسلسل طويل بلا نهاية، كل حلقة فيه تحمل حبكة جديدة وشخصية جانبية أغرب من السابقة..

كنت أظن أن البنك هو الميدان الوحيد للمعارك اليومية، لكنني اكتشفت أن الحي الذي أسكن فيه ينافسه في التعقيد.

الجار الذي يسكن فوقي، على سبيل المثال، كان خبيرًا في إعادة ترتيب أثاث منزله كل ثلاثاء منتصف الليل.. عندما اشتكيت مرة، أجابني بجملة عبقرية:

- **يا أخي، الفوضى تُجدد الطاقة!**

وكأنني بحاجة لطاقة إضافية وأنا بالكاد أنام.. أما البقال الذي أشتري منه حاجياتي، فقد كان يعتبر نفسه مستشارًا غذائيًا أكثر من كونه بائعًا.. كنت أذهب لشراء الحليب، فيبدأ محاضرة طويلة عن فوائد الزبادي، وأحيانًا ينتهي بي الأمر بشراء شيء لا أحتاجه فقط كي أوقف الحديث.

ولكن مع كل هذه التفاصيل، كنت أتعلم شيئًا مهمًا: أن أصنع عزلتي الخاصة وسط الضجيج. وجدت في القراءة متنفسًا، وفي بعض الأحيان الكتابة الساخرة التي تخرج كل ما أعيشه من مواقف غريبة.. أصبحت أرى الكوميديا في التفاصيل الصغيرة، حتى في لحظات الإحباط.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أتناول قهوتي في استراحة العمل، فاجأني "فواز"، الفيلسوف العميق، بجملة لم أنسها:

- **يا أخي، كلنا مثل النمل. نركض طوال الوقت، نعمل بلا توقف، وفي النهاية يأتي أحدهم ليطمرنا دون أن يسأل عن مجهودنا**

ضحكتُ، لكني أدركت أن هناك حقيقة فيما قاله.. ربما كل هذه المغامرات والعمل والانتقال من بلد لآخر ليست سوى طريقة لتزجية الوقت حتى نصل إلى النقطة التالية.

ومع اقتراب إجازتي القادمة، قررت أن أتبع نصيحة غير معتادة لنفسي: سأختار وجهة جديدة، وربما مغامرة أقل تعقيدًا هذه المرة.. لن أطلب تسهيلات أسعد ولا حكم منصور، سأكتفي بأن أبحث عن هدوء بسيط وسط هذا العالم المليء بالأصوات المتداخلة.

أما عن العودة للوطن؟ لم أعد أفكر فيها كقرار نهائي.. ربما الوطن هو أسمى معاني الراحة النفسية بشر مثلك بطريقة كلامك وملابسك و طريقة طعامك، وحتى ذلك الحين، سأواصل كتابة فصول جديدة من هذه الكوميديا التي أسميها حياتي.

إجازتي المنتظرة أصبحت حديث الجميع في البنك حتى فى الفرع الرئيسي.. أتصل أسعد بمكالمة دولية مخصوص لأجل إعطائي نصائح غير مطلوبة، تبدأ بكيفية حزم الحقائب ولا تنتهي عند نوع الهدايا التي "يجب" أن أعود بها.. أما فواز، فقرر أن يدخل في مرحلة فلسفية جديدة، قائلاً:

- **الإجازة ليست هروبًا، بل مواجهة مع الذات.**

ذاتي كانت تحتاج إلى مواجهة هادئة، بدون تدخلات أو خطب تحفيزية.

في النهاية، قررت أن أبتعد عن الخطط المعتادة..اخترت وجهة بسيطة، مدينة صغيرة على البحر، بدون أبراج زجاجية أو شوارع مزدحمة.. حين أخبرت زملائي، أصابهم الإحباط.. كانوا يتوقعون مني مغامرة ملحمية، وكأنني بطل فيلم أكشن..عندما علمت أسعد بخطتي قال لي:

- **سوف تضيع وقتك هناك يا رجل! يجب أن تستغل الفرصة؟**

استغلال الفرص عند أسعد يعني أن تحجز في فندق خمس نجوم، تلتقط صورًا أمام معالم سياحية، ثم تعود لتحكي القصة بتفاصيل كأنك اكتشفت قارة جديدة.

وصلت إلى المدينة الصغيرة، وبمجرد أن وضعت حقيبتي في الفندق، شعرت بشيء غريب، السكينة.. لا ضجيج، لا مكالمات مستعجلة من البنك، لا مكالمات

أسعد ولا فواز.. فقط صوت البحر ونسيم لطيف يعيد ترتيب أفكاري.. بدأت أتنفس ببطء، كأنني أتعلم العيش من جديد.

في أحد الأيام، جلست في مقهى صغير تديره عائلة محلية.. كان المكان يعج برائحة القهوة الطازجة والخبز المخبوز للتو.. تعرفت على مالك المقهى، رجل مسن بابتسامة دافئة وروح مرحة.. حكيت له عن عملي وتنقلاتي، فضحك وقال:

- **العمل مهم، لكن لا تجعل حياتك بنكًا للذكريات التي لا تسحبها أبدًا.. عش ما تستطيع الآن.**

هذه الجملة بقيت معي طوال الإجازة، وكأنها مفتاح لحل اللغز الذي عشته في السنوات الماضية.. عدت من الإجازة بشيء مختلف.. ليس مجرد حقيبة مليئة بالهدايا أو صور جديدة على هاتفي، بل بحالة من التصالح مع نفسي ومع الحياة.

في اليوم الأول بعد عودتي، سألني منصور:

- **كيف كانت الإجازة**

ابتسمت وقلت:

- **كانت مثل كوب شاي ساخن في ليلة باردة.**

لم يفهم المعنى، لكنه أومأ برأسه وكأنه اقتنع. أما فواز، فاكتفى بجملة عميقة أخرى:

- **أحيانًا، الراحة الحقيقية هي عندما لا تحاول شرحها للآخرين.**

ومنذ ذلك الحين، قررت أن أعيش الحياة بأسلوب جديد.. لا أبحث عن الكمال ولا أتظاهر بالإجابات الجاهزة.. أتعلم من أسعد كيف أكون كريمًا، ولكن بلا تصفيق.. وأتعلم من فواز كيف أعمق أفكاري، لكن دون أن أضيع في متاهاتها..

وربما، أهم ما تعلمته هو أنني لن أدع الحياة تتحول إلى حساب جاري أُودع فيه أحلامي دون أن أجرؤ على سحبها.
وقررت العودة إلى بلدي بعد أن دبرت مبلغًا جيدًا يمكن أن يشكّل بداية حقيقية للزواج.. لم يكن الأمر سهلًا، لكنني شعرت بأن الوقت قد حان لبدء فصل جديد، بدون أسعد، بدون فواز، وبدون تلك النصائح التي تأتي معها جملة "أنا أقول لك لمصلحتك".

بالطبع، أسعد لم يتركني أبتعد تمامًا عن تأثيره.. بمجرد أن علم بعودتي، أطلق خطته الاستراتيجية:
- **اسمع، عندي شقة لعائلة زوجتي سعاد، في مكان محترم وراقي جدًا، وأمام شقتنا مباشرة.. هذه فرصة لا تُعوض.**

كان اقتراحًا لا يمكن مقاومته... أو ربما كان اقتراحًا لا يمكنك رفضه لأن أسعد سيظل يذكّرك به إلى الأبد.

لم أكن متحمسًا تمامًا لفكرة أن أعيش أمام شقة أسعد، لكن الرجل أصر وأقسم أن الشقة "لقطة". بعد تفاوض بسيط، توسط لي وأخذتها بمبلغ "معقول" كما قال.. لاحقًا، اكتشفت أن المبلغ المعقول كان معقولًا فقط لأنه يُبقي أسعد قريبًا بما يكفي لإلقاء ملاحظاته اليومية حول حياتي الزوجية المقبلة.

الشقة كانت لا بأس بها، في منطقة راقية إلى حد ما، تحتاج إلى بعض التعديلات لتصبح صالحة للسكن، أو على الأقل لتخفف من شعوري بأنها "استثمار أسعد" أكثر من كونها بيتي.. بعد تسوية أمور الشقة، جاء التحدي الأكبر، البحث عن العروس.. كان علي أن أخوض هذه المرحلة بهدوء، بعيدًا عن تأثير أسعد هذه المرة.

أما بالنسبة للعمل، فقد قررت العودة إلى البنك ورفضت أي فكرة للتنقل مجددًا.. العمل في فرع واحد، في مدينتي، بدا لي أكثر هدوءًا وأقل درامية من مغامرات السفر.. كنت بحاجة إلى استقرار يمنحني وقتًا لإعادة ترتيب حياتي.

لكن الحياة مع أسعد في الجوار كانت دائمًا مليئة بالمفاجآت.. كنت أعلم أن هذه ليست النهاية، بل مجرد بداية لفصل جديد من مغامرات "أسعد وسعاد"، أو كما أحب أن أسميها: يوميات حياة البجعتين.

بالطبع، لم تمضِ الأمور بهدوء كما تخيلت.. مع أسعد في الجوار، كان الهدوء ترفًا غير متاح..بمجرد أن انتهيت من ترتيب الشقة وبدأت في الاستقرار، ظهر أسعد كالمعتاد بخططه "العظيمة". أولى مهامه كانت اقتراح عروس فقال فى ساعة صفا:

- اسمع، لديّ بنت ممتازة، قريبتي، مثقفة، جميلة، و... تحب الحلويات!
قالها بابتسامة عريضة كأنه يبيع لي سيارة مستعملة.. لم يكن لدي اعتراض حقيقي على فكرة المساعدة، لكن طريقة أسعد في تسويقها جعلتني أشعر أنني أتعامل مع وسيط زواج أكثر من صديق جار ودود.

وقبل أن أستطيع التفكير في الأمر، دعاني إلى العشاء مع زوجته سعاد و"العروس المحتملة". هناك، جلستْ سعاد تطلق عبارات مليئة بالثناء عن قريبتها، بينما أسعد كان يغمز لي بين الحين والآخر كأنه يقول: "لا تضيع الفرصة". أما الفتاة، فقد كانت لطيفة، لكن بدا عليها القلق وكأنها تخشى أن تتحدث فتجد نفسها مرتبطة دون علمها.

بعد العشاء، قلت لأسعد بلطف:
- الموضوع يحتاج وقتًا للتفكير

طبعًا، لم يفهم كلمة "وقت".. في اليوم التالي، كان قد جهز قائمة جديدة من الفتيات المحتملات، وكأنني قدمت طلبًا في وكالة زواج فورية.

ومع ذلك، كان هناك شيء محبب في طريقته.. رغم إصراره المزعج أحيانًا، إلا أنه كان يعني الخير حقًا.. بين الضغوط والاقتراحات المتكررة، وجدت نفسي أخيرًا أفكر بجدية.. ربما كان الوقت مناسبًا للزواج، وربما كان أسعد -بكل جنونه- جزءًا من الحظ الذي أحتاجه في حياتي.

أما البنك، فقد عاد ليكون ميدان المعارك الصغيرة.. زملائي القدامى رحبوا بي وكأنني بطل عاد من المنفى، في حين أن الروتين بدأ يتسلل من جديد.. لكن هذه المرة، كنت مستعدًا للتعامل مع كل شيء بهدوء أكبر.

أحيانًا، كنت أجلس في شقتي الجديدة وأفكر: هل هذه هي النهاية السعيدة التي كنت أبحث عنها؟ أم أن حياتي مجرد سلسلة من التحديات الساخرة التي تتخللها لحظات من الراحة القصيرة؟

لكنني كنت متأكدًا من شيء واحد: مع أسعد في الجوار، لن يكون هناك ملل أبدًا.

زواجي من سيدة عربية

تركتُ عرائس والدتي، وعرائس سعاد وأسعد، وقررت البحث عن "عروسه" بين الألف.. اقتنيت كمبيوتر رائعًا وشاشه رفيعة ،وبدأت في متابعة الصفحات العامة، حيث لفتتني فتاة كانت تعلّق باحترام وتقدير دائمين.. فقلت: "هذه بداية مبشرة!" وأرسلت لها صورة تعبيرية بريئة.. ردّت بصورة تحث على الصلاة والأذكار!.

هنا، بدأت القصة تأخذ منعطفًا رومانسيًا.. تبادلنا الكلمات الرقيقة، وحدث ما لم أتوقعه: الفتاة العربية هذه، التي عرفت لاحقًا أنها تعيش في مصر وتدرس في إحدى جامعاتها، كانت تتحدث العامية المصرية بطلاقة كأنها ولدت بجوار كوبري قصر النيل.. قالت إنها غادرت بلدها للدراسة..وأصبحنا نتحدث لفترة، لكن دومًا كانت ترفض المقابلات الخارجية، ربما حفاظًا على الغموض والجاذبية.

قررت التقدم لخطبتها، وهنا بدأت فصول المفاجآت.. الصدام الأول؟ اكتشفت أنني مطالب بشراء كل شيء، من الأثاث إلى أدوات المطبخ، وصولًا إلى... ملابسها الخارجية وتأسفت على حال سعاد وتعجبت عندما وجدت كم الطلبات المبالغ فيها ولكنني وافقت لأجل الحب.
للاسف، كل ما ادّخرته في سبع سنوات من الغربة والحرمان ذهب لأجل كلمة "وينك حبيبي، توحشتك!"

دخلت بيتها أخيرًا، ولم أجد إلا مزيجًا عجيبًا: الكلمات العامية المصرية تظهر في الأحاديث اليومية العادية، لكن عندما يأتي وقت الطلبات، يبدأ الدلع الشامي:
- **حياتي، ما رأيك تحضر لي طقم جديد هذا الشتاء؟**

شعرت للحظة أنني تزوجت فيلمًا هجينًا يجمع بين كوميديا الحياة المصرية ورومانسية المسلسلات الشامية.. بدأت أفكر بسعاد، زوجة أسعد، التي كانت تشتكي من أعباء الزواج وتحملها كل المسؤوليات.. قالت لي مرة بحسرة:

- **نحن من تنازلنا عن حقوقنا يا عزيزي!"**

لكن سعاد كانت حزينة لسبب آخر أيضًا.. عندما تمرض، لا أحد من أهل أسعد يكلف نفسه حتى برنة هاتفية، بينما سندس -النجمة الشامية- إذا عطست، تنهال عليها الاتصالات من الأهل والجيران، وكله حفاظًا على التوازن الثقافي واللغة الأصيلة في البيت!

أدركت أنني أمام عروس ليست كأي عروس: مزيج غريب يمتلك دهاء نصف سكان الكرة الأرضية.. المضحك؟ رغم كل شيء، ما زلت أشتري لها ملابس الشتاء.
استطعت أن أنسى العفش والنجف والستائر وحتى السجاد، لكن لم أستطع تجاهل الحقيقة: كل شيء يجب أن يكون أفضل نوع.. لا مجال لأنصاف الحلول أو التنازلات.. إذا تجرأتُ واقترحت شيئًا بسيطًا يناسب ميزانيتي، كانت تقول بابتسامة مشوبة بالتهديد:

- **إذا لم تحضر ما أريد.. سوف ترى ما أفعله ؟**

كنت أنفّذ فورًا، وكأنني تحت تأثير تعويذة، دون أن أجرؤ على السؤال:

- **ماذا كانت ستفعل إذا لم اشتري ما تريد؟**

حاولت مرة أن أجد إجابة، لكن خيالي رفض أن يصل إلى نهاية القصة.. هل كانت ستُحضر عصا سحرية وتجعلني أختفي؟ أم ستطلب الطلاق أمام لجنة

تحكيم دولية؟ الحقيقة أنني لم أكن أرغب في معرفة الإجابة أصلاً.. كنت أفضل العيش بسلام، أو بشيء يشبه السلام، ولو كان مكلفًا.
أمي امرأة محترمة للغاية، ترفض التدخل في حياتنا.. حتى عندما تأتي لزيارتنا -وهو أمر نادر لا يحدث إلا بعد تحديد موعد مسبق وموافقة برلمانية- تجلس في غرفة الضيوف بهدوء، دون أي تعليق أو انتقاد.. ربما لأنها كانت ترى المشهد واضحًا دون حاجة لأي إضافات.

أما سندس، فهي قصة أخرى.. سندس كانت تهتم بالبيت... و بنفسها فقط.. الحقيقة المطروحة؟ الأمور المنزلية حتى "الصغيرة" مثل شراء احتياجاتها الشخصية لم تكن مدرجة في جدول مهامها.

أما أنا؟ كنت الرجل متعدد الأدوار.. أذهب إلى الصيدلية حاملاً ورقة مكتوبة بخط يديها النسائي الدقيق، وأقدّمها للصيدلي الذي كان يقرأ الطلبات بابتسامة ذات مغزى، ثم يضع كل شيء في كيس أسود.

هل كان هذا محرجًا؟ بالطبع! لكني كنت أقول لنفسي: "إنه فقط كيس... مجرد كيس أسود.. لا داعي للقلق."
المشكلة أن الكيس الأسود كان يحمل وزنه من الأسرار الثقيلة، وأحيانًا، كنت أشعر أن الصيدلي ينظر إلي وكأنني بطل فيلم كوميدي عائلي.
سعاد، تلك المرأة التي تُجيد تحويل أي موقف عابر إلى درس عملي، قابلتني مصادفةً في السوق.. كنت أتجول بين أكوام الخضروات والفواكه، أحاول أن أبدو واثقًا من نفسي، رغم أنني بالكاد أميز بين الكوسة والخيار.

لمحتني سعاد من بعيد، وابتسامتها تحمل مزيجًا من الشفقة والفخر.. اقتربت وقالت بنبرة لا تخلو من الدعابة:

- **ما الأمر يا حنفي؟ يبدو أنك لا تشتري سوى الموز!"**

وقبل أن أستوعب كلامها، أخذت بزمام الأمور وكأنها مديرة السوق، وبدأت درسها في "فن التسوق".

أشارت إلى الطماطم قائلة: "انظر جيدًا، يجب أن تكون حمراء نضرة، ولكن ليست طرية أكثر من اللازم.. ثم التفتت إلى الباذنجان وأضافت:

- **هذا إن كان أجوفًا من الداخل، كالجوافة، فلا يُرجى منه خير، ابتعد عنه!**

شعرت أن الجزار الذي كان يراقبنا من بعيد قد بدأ يشك أنني أتعلم التسوق لأول مرة في حياتي..ومع ذلك، أكملت سعاد جولتها بكل حماسة، وكأنها تُعدّني امتحان نهائي في "معايير اختيار الخضروات المثالية".

وحين أنهت درسها، ركبت سيارتها، لكنها لم تُغلق النافذة قبل أن تلقي تعليقها الأخير:

- **تعلم يا حنفي، لن اتركك تخرج للتسوق وحيداً إلا وأنت خبير في كل شيء... حتى في اختيار الباذنجان!" حتى تشكرني سندس.**

وقفت مكاني مبتسمًا، وأنا أفكر: يا لها من امرأة، حتى في السوق تُظهر تفوقها على الرجال جميعًا يا لك من محظوظ يا أسعد!
بعد حمل سعاد وطلاق أسعد من زوجته الثانية، عادت الحياة لتأخذ منعطفًا دراميًا جديدًا.. سعاد، تلك المرأة التي ترفض الاستسلام، قررت العودة للعمل في البنك، ولكن ليس بأي طريقة عادية.. فقد أخذت المفتاح من أسعد وأصبحت تركب سيارتها، بعد أن تعلمت القيادة بمهارة لدرجة تجعل سائقي التاكسي يشعرون بالخجل!

تخيل يا عزيزي، أسعد كان قد رفض بشدة فكرة تعلمها القيادة في السابق، لكنها الآن تقود وكأنها تخوض سباق فورمولا 1.. ومع ذلك، لم تكتفِ بذلك، بل

عادت للعمل في البنك وهي محمّلة وكورسات لغات أجنبية و محاسبة، وكأنها تقول للعالم: "أنا قادمة، ولن يوقفني شيء... حتى الحمل!"

سعاد، وهي في شهور حملها، تفوقت على نفسها لدرجة أن البنك بدأ يعتمد عليها في كل شيء، وأسعد؟ كان ينظر إليها بنظرات مليئة بالحب والندم، وكأنه يُدرك أن الحياة معها كانت أكثر إثارة من أي شيء آخر.

لم يتحمل البعد طويلًا، فبدأ بالتلميح... ثم التصريح... وأخيرًا، تدخلت أنا والزملاء، لنجعل هذه الملحمة تنتهي بنهاية سعيدة.. هكذا، تم إسقاط دعوى الطلاق، وعاد أسعد إلى بيته، ليبدأ فصلاً جديدًا في حياته مع سعاد.

والنتيجة؟ مولود جديد أسموه "مسعود الصغير"، وكأنهما يعلنان بداية عصر جديد من المغامرات العائلية، حيث يتعلم أسعد أن الحب الحقيقي يحتاج أحيانًا إلى تنازلات... وربما أيضًا إلى كورس جديد!
بدأت خطوات السيدة توحه، والدة أسعد، تندثر شيئًا فشيئًا من بيت ابنها، بعدما كانت تتحرك فيه وكأنها صاحبة المكان.. الأمور تبدلت، وحتى سعاد، التي كانت تعامل أهل زوجها كأهلها بل وأكثر، أصبحت بالكاد تزورهم، واكتفت بجعل العيد موعدًا رسميًا للزيارة، وكأنها مناسبة وطنية.

سعاد، التي اعتادت أن تُشرف على التحضيرات للعزومات بحماسة، وتُغرق بيت أهل زوجها بالاهتمام والتقدير، أصبحت الآن تختصر كل ذلك في جملة مقتضبة عبر الهاتف:

- **كل عام وأنتم بخير... نراكم في العيد القادم، بإذن الله.**

أما السيدة توحه، فقد جلست تستعيد ذكريات الأيام الخوالي، حين كانت تدخل بيت ابنها كملكة، تُصدر أوامرها بثقة، وتطلب كوبًا من الشاي قائلة: "سعاد،

حضّري شايًا كالعادة، بطريقتك المميزة." واليوم؟ إن أرادت كوب شاي، فعليها أن تأمل أن يتذكر أسعد إحضاره بنفسه!

أما المشهد العام، فأشبه بفيلم درامي؛ السيدة توحه تلعب دور الأم المقهورة، وسعاد تجسد دور الزوجة التي قررت أن السلام النفسي أثمن من محاولات إرضاء الجميع لتكون زوجة الابن المفترسة.. وفي المنتصف، يقف أسعد حائرًا، يحاول التوفيق بين الطرفين، لكنه غالبًا ما ينتهي محاصرًا بين أم غاضبة وزوجة متقنة لفن الابتسامات الدبلوماسية والردود المقتضبة.

أما أنا، فلم أتمكن من مواصلة الزواج مع سندس، والأصح أن هي من رفضت الاستمرار..هي، ببساطة، مدللة وتحتاج إلى ثري عربي يشتري لها الفساتين الفاخرة ويجلب لها الماس بدلاً من الحُلى اليومية.. أما أنا، فقد أفلست تمامًا، وقررت أن أترك لها حرية اختيار حياتها، فابتعدت هي بكل هدوء، وأخذت حقوقها كما لو أنها تسترد ممتلكات ثمينة من مزاد خيري.

والحمد لله، أنه لم يأتِ طفل بيننا، لأنني كنت سأكون أمام مأساة حقيقية:

- **كيف أشرح له يومًا أنه أباه في هذا المنزل لم يعرف من الرفاهية سوى كلمة "حبيبي"؟**

لكني أعترف، بيني وبين نفسي، أنني شعرت بشيء من الراحة بعد رحيلها.. ربما كان هذا هو الحل، لكنني لم أستطع إخفاء الحنين للمرة الوحيدة التي كنت فيها أشعر بأنني جزء من حياة مليئة بالرفاهية، حتى وإن كانت تلك الرفاهية عبارة عن فواتير بأرقام خيالية.

العروس الجديد

هذه المرة، قررت أن أبحث عن عروس، يمكنها النزول إلى السوق ومساعدتي في تحمل أعباء الحياة اليومية.. بعد تفكير طويل، اقترح عليّ أسعد فتاة زميله لنا، وسرعان ما بدأت أطلق عليها اسم "حنفيه"، والسبب؟ لأنني إذا أغضبتها، تبدأ دموعها في السيلان وكأنني فتحت صنبور ماء لا أستطيع غلقه، حتى لو حاولت، أما إذا كانت سعيدة، فلا يمكنك التوقف عن سماع ضحكتها التي تنهمر كما لو كانت مياه جارية في نهر لا يوقفه شيء.

والطلب؟ لا تتخيل أبدًا أن أحدًا يمكنه أن يتوقع ما سيحدث إذا طلبت منها شيئًا! بمجرد أن أطلب، تبدأ السلسلة، وكأنني أطلقت موجه لا تنتهي من الطلبات.. أولًا هذا، ثم ذاك، ثم هل يمكنني إضافة هذا إلى القائمة؟ الحقيقة، كل طلب كان يجلب معه طلبًا آخر، حتى كدت أفقد العد.

ورغم هذا، كانت كل لحظة معها مليئة بالألوان؛ الضحك والدموع، الطلبات التي لا تنتهي، والمفاجآت التي تطرأ من حيث لا أحتسب.. كانت حياتي معها مغامرة جديدة كل يوم، مليئة بالتحديات واللحظات التي لا تنسى، وبين دموع الضحك وطلبات غير منتهية، اكتشفت أنني كنت أعيش مع شخص لا يتكرر، ورغم كل ذلك، كنت سعيدًا بأنني اخترتها.

هي مزيج بين سعاد وسندس، تحمل الرقة والجمال مع بعض من خصال "الست الجدعة"، تلك التي لا تساوم على حقوقها أو تتراجع عن شيء تراه حقًا.. ربما لو كنت تتصور أنك ستعيش مع امرأة هادئة، فربما أنت مخطئ في تقديرك.. هي عصبية، ولكن عصبية على أكمل وجه، بحيث لو حدثت مشكلة صغيرة، ستراها تتعامل معها وكأنها تدير أزمة عالمية.. في الواقع، لو كسرت كوبًا من الشاي على الأرض، سيبدو الأمر كما لو أن العالم كله انهار!

في إحدى المرات، قلت لها:

- حبيبي، هل هناك شيء يمكنني مساعدتك فيه؟

فأجابت:

- نعم، إذا كنت لا تمانع، يمكنك مساعدتي في غسل الصحون.

فقلت:

- غسل الصحون؟! بالطبع، أنا أستطيع، لا مشكلة في ذلك.

لكنها نظرت إليَّ بنظرة عميقة وقالت:

- هل تعتقد أن الصحون ستغسل نفسها؟! وهل يمكنك تركها تتراكم؟! إذا حدث ذلك، ستتحول إلى كارثة عائلية!

فقلت:

- حسنًا، حسنًا، سأفعل ذلك.. لكن كيف سننتهي من العمل هنا؟

فأجابت:

- كل شيء سيكتمل إذا ركزت في ما تفعله، لكن لا تضيع وقتك في إضاعة الفرص... يجب أن تفكر في العواقب قبل أن تبدأ في حل مشاكلك!

وبعد فترة، كنت أشعر وكأنني في حرب عالمية ثالثة بسبب كل طلب وكل تعليمات تصدرها.. وكلما أخطأت في شيء، كانت لسانها يبدأ في إطلاق "الأسلحة" الدبلوماسية الخاصة بها، لدرجة أنني كنت أتمناه لو كان لدي فريق من المساعدين يعينني في كل هذه "المهام".. لا أستطيع أن أعد لكم عدد المرات التي شعرت فيها أنني على وشك أن أستعين بكتيبة لإتمام المهام اليومية.

ثم جاء يوم "المفاجآت"، حيث قررت أن أطلب منها أن تخرج لشراء بعض الأشياء، فإذا بها تقترح أن نذهب معًا.. عندما سألتها سعاد في السوق:

- هل تعتقدين أن هذا الشخص يعرف كيف يختار الخضار؟

فأجابت على الفور:

"بالطبع، ولكن اجعليه يتعلم أكثر!"
ثم بدأت تضع في سلة المشتريات ما يمكن أن يغطي احتياجات أسرة من خمسين فردًا وسعاد تنظر متعجبه.

في النهاية، ورغم عصبيتها، ورغم صرامتها في بعض الأحيان، لا يمكنني أن أنكر أنها كانت تدير حياتها ببراعة، وكأنها قائد لإحدى الجيوش، فهي امرأة لا تقبل الفشل ولا تتردد في تحقيق أهدافها، حتى ولو كان ذلك يعني أنني أحتاج ثمانية أرجل أدير حياتي معها!

علبه تونه" بعد عامين "

استيقظت صباحًا على صوت المنبه الذي بدا وكأنه مصمم خصيصًا ليزعجني.. قمت متثاقلاً لأُحضر كوبين من القهوة وجدتها تمسك الهاتف كأنها في خدمة العملاء لكن في البيت..وعندما انتهت من المكالمات الصباحية دخلت المطبخ لأجد المفاجأة: حنفية تبكي، ولا غرابة كان هذا منطقيًا! السبب؟ انتهى النسكافيه.

حنفية – زوجتي، وليس الشيء الذي يتدلى في المطبخ – كانت تحمل وجهًا يعكس كل غضب العالم.. حاولت تهدئتها قائلًا:
- يا حبيبتي، القهوة ليست حياة أو موت!
لكنها ردّت بحزم:
- بل حياة، خصوصًا وأنا حامل! هل تتوقع أن يكبر هذا الطفل على شاي؟

أدركت أن النقاش خاسر، فنزلت مسرعًا لشراء كل ما يلزم لتصحيح الخطأ.. لكن، وأنا عائد إلى المنزل، بدأت أتساءل:
- لماذا دموع الحنفية؟ ولماذا كل هذا الانفعال؟ لم أستطع إلا أن أتوتر قليلاً.

عندما عدت، وجدت المشهد الأكثر درامية: حنفية جالسة على الأريكة، تمسك بطنها وتقول:

- **أظن أن الوقت حان.**

لم أصدق أذني، فقلت:

- **الوقت؟ للولادة؟!**

ردّت بسخرية رغم الألم:

- **لا، الوقت لإعداد قهوة.. ، أين كنت؟**

وهكذا بدأت رحلة اليوم الأكثر جنونًا في حياتنا، مع بكاء زوجتي الحبيبة في سباق مع الزمن لإنجاب الجيل القادم من عشاق النسكافيه..

مهند

بعد شهور قليلة من الانتظار والترقب، وضعت حنفية مولودنا الأول.. أطلقت عليه اسم مهند.. وهنا بدأت المعضلة الكبرى: كيف سأقف أمام عمي، كبير عائلتنا في الصعيد، وأقول له بكل ثقة:

- **يا عمّي، أقدّم إليك حفيدك... مهند!"**

عمي، الذي يؤمن أن الأسماء يجب أن تكون أشبه بنشيد حماسي مثل مرعي، أو مبارك، أو حتى صقر.. كيف سأقنعه أن "مهند" ليس اسم شخصية من مسلسل تركي، بل اسم ابننا، الذي من المفترض أن يحمل إرث العائلة؟

جلست مع حنفية لأناقشها بشأن هذا الاسم، وبدأت الحديث بحذر شديد، كأنني أفكك قنبلة موقوتة:

- **حنفية، حبيبتي، ألا تعتقدين أن اسم مهند... لا يتناسب مع أصول عائلتنا في الصعيد؟"**

رفعت حاجبها وقالت بثقة وكأن الأمر محسوم:

- **ما مشكلته؟ اسم جميل، حديث، ويليق بابننا.**

- **لكن يا حنفية، اسم مهند ربما يثير الشكوك... عمي قد يظن أننا استعرنا الطفل من إحدى المسلسلات التلفزيونية!**

ضحكت بخفة وقالت:

- **يا عزيزي، نحن في عصر العولمة، وليس في زمن القوافل. الأسماء لم تعد حكراً على أحد.**

في أثناء النقاش، دخلت سعاد، جارتنا الفضولية التي لا تفوّت فرصة لإبداء رأيها.. قالت بنبرة واعظة:

- لو كنت مكانكما، لاخترت اسمًا قويًا يفرض الاحترام، كـ حاتم أو عاصم."
ردّت حنفية بحزم، وهي تمسك فنجان القهوة:

- حاتم؟ عاصم؟ نحن نسمّي طفلنا، لا نختار اسمًا لديوان قبائل.

أسعد، كعادته، اكتفى بالابتسام والتهنئة، قائلاً:

- طالما أنا لست المعني بمواجهة عمّك، فلا بأس.. اسم مهند يبدو لطيفًا.

والآن، ومع مباركة الجميع أو صمتهم الحذر، وجدت نفسي أعدّ السيناريو لمقابلة عمي.. كنت مستعدًا لكل شيء، اعتراض غاضب، أو صمت ثقيل، أو حتى اجتماع عائلي قد ينتهي بفرض اسم جديد.

لكن، في أعماقي، كنت أعرف الحقيقة، سواء رضي عمي أم لا، فإن حنفية هي الوحيدة التي لن يُردّ لها طلب، ومهند سيبقى اسمه كما أرادت.

في صباح يوم مشمس، بينما كنت أستمتع ببعض لحظات الهدوء مع حنفية والصغير مهند، دُقّ الباب بقوة تشبه عزف الطبول.. فتحت الباب لأجد عمي عبد القدير، كبير العائلة، واقفًا أمامي بجلبابه التقليدي وعصاه التي دائمًا ما تُضيف هيبة إلى حضوره.. لم يتحدث كثيرًا، بل اكتفى بعبارة واحدة:

- جئت لأبارك لكما بالمولود الجديد.

ابتلعت ريقي وشعرت بحرارة المكان ترتفع فجأة، فدعوت عمي عبد القدير للدخول.. جلس في صدر المجلس كعادته، ونظر إلى حنفية التي تحمل الصغير مهند، بينما أنا أحاول جاهداً تهيئة نفسي لأسوأ السيناريوهات.

قال عمي بنبرة محايدة، ولكن بعينيه نظرة فضول واستفهام:

- حسنًا يا ولدي، اسم المولود؟

نظرت إلى حنفية وكأنني أستمد منها الشجاعة، فقالت بثقة وابتسامة عريضة:

- اسمه مهند.

تجمدت الأجواء لثوانٍ، نظر عمي إلي ثم إلى الطفل، ثم قال:

- مهند؟ اسم غريب على عائلتنا... منذ متى نُسمي أولادنا بأسماء كهذه؟

حاولت الرد، لكن حنفية سبقتني بلهجتها الواثقة:

- يا عمي، اسم مهند يعني السيف القاطع، وهو اسم يحمل القوة والهيبة.. أردت أن يكون لابني اسم يليق به.

ظل عمي صامتًا للحظة، ثم قال وهو يمسّد لحيته:

- **السيف القاطع؟ حسنًا، يبدو أن اسمًا كهذا يمكن أن يثير الفضول... لكن أخبريني، هل فكّرتِ فيما سيقوله أبناء العمومة؟ أم أنكِ لا تعبئين بتقاليدنا؟**

ردت حنفية بابتسامة هادئة:

- **يا عمي، التقاليد جميلة، لكن لا بأس ببعض التجديد.. أليس مهماً أن يحمل الاسم معنى قويًا، سواء كان تقليديًا أو حديثًا؟**

عمي أطلق ضحكة خفيفة وقال:

- **حسنًا، يبدو أنني لن أستطيع معارضة هذه الحجة.. ولكن يا بني، أرجو أن يكون هذا السيف القاطع مهند خير خلف لعائلتنا.**

ثم قام وربّت على كتفي بابتسامة خفيفة، وأضاف:

- **لكن، لا تتوقع مني أن أناديه باسمه.. سأكتفي بـ'الصبي'.**

وبينما كان عمي يغادر، نظرت إلى حنفية وهمست:

- **رأيتِ؟ نجونا هذه المرة، لكننا بحاجة إلى خطة أقوى إذا أرادت الأسماء القادمة أن تكون مثل آدم أو كريم.**

فأجابت وهي تهز الصغير بين ذراعيها:

- **لا تقلق، مهند كافٍ ليكون بداية التغيير في هذه العائلة!**

رحلة إلى شرم الشيخ

بعد سلسلة لا تنتهي من المشاحنات الأسرية التي صارت جزءًا لا يتجزأ من حياتنا أنا وأسعد، قررننا أن نأخذ إجازة قصيرة في مكان هادئ.. اخترنا شرم الشيخ، حيث لا يوجد صوت إلا صوت الأمواج، ولا إزعاج إلا إزعاج النوارس التي تبدو وكأنها تسخر منا بصوتها.

جلسنا في فندق قديم وبسيط نحتسي القهوة (بدون اللبن بالطبع، فالحنين ما زال مختلفاً)، وكان أسعد يبدو شاردًا على غير عادته.. حاولت أن أفتح معه حديثًا عابرًا، لكنه فجأة قال بنبرة تملؤها الحسرة:

- **هل تعلم يا صديقي... الأطفال نعمة، حتى لو كانوا بنات.. لقد خلعوا قلبي لأنها بعيدة عني إسعاد.**

نظرت إليه متفاجئًا، فهو عادةً شخص يتحمل الألم بصمت.. قلت:

- **أسعد، ما المشكلة؟ هل تتحدث عن ابنتك؟**

أومأ برأسه وهو يحدق في الأفق، ثم أكمل:

- **طليقتي هنا... في شرم الشيخ، ومعها ابنتي.. لكنها لا تريدني أن أراها.. أليس من حقي أن أرى ابنتي؟ حتى النوارس هنا ترى أطفالها!**

حاولت تهدئته بمزاح خفيف:

- يا صديقي، على الأقل النوارس لا تحتاج إلى إذن طليقاتها.

ضحك قليلًا، ثم قال بنبرة حاسمة:

- لكنني سأراها، مهما كان الثمن.. ابنتي ليست طرفًا في نزاعات الكبار.. إنها صغيرة، ولدت بسلام، ويجب أن تعيش في سلام.

قلت له:

- حسنًا، لنترك الأمر للحظات ونستمتع بالإجازة..لن ندع الماضي يفسد علينا الحاضر.

فرد بابتسامة باهتة:

- بالطبع، بشرط أن تتوقف عن مقارنة ابنتي بالنوارس.

كانت تلك الرحلة مليئة بالمواقف الصغيرة التي أعادت إلينا الشعور بأننا أحياء، حتى لو كان الحنين بعيدًا عن أسعد، وحتى لو كنت أنا ما زلت أبحث عن طريقة للتعامل مع مهند واسمه "غير الصعيدي".

وفي اليوم التالي، قررنا أن نكسر الروتين وننطلق في جولة بحرية.. البحر كان هادئًا، وأشعة الشمس تراقصت على سطح المياه كأنها تشاركنا رغبتنا في الهروب من همومنا.. لكن أسعد، كعادته، كان عالقًا في أفكاره.

جلست بجانبه على طرف القارب، وقلت:

- إسعد، هل تعرف ما المشكلة الحقيقية؟
نظر إليّ بفضول وقال:
- ماذا؟"
- أنك تسمح للماضي أن يُلقي بظله الثقيل على كل شيء.. لو كنت مكانك، لأخذت قاربًا كهذا، وأبحرت إلى حيث تكون ابنتي، حتى لو اضطررت لاصطيادها من بين النوارس!

ابتسم أسعد بهدوء، ثم قال:

- أنت تفكر كأنك بطل في فيلم أكشن، لكن الحياة ليست بهذا البساطة."
رددت عليه بنبرة ساخرة:

- يا صديقي، لو أن كل شخص قال ذلك، لظل الجميع عالقين في قارب صغير وسط البحر.

في تلك اللحظة، اقترب منا أحد أفراد طاقم القارب ليخبرنا أن هناك جلسة غطس قريبة من الشاطئ.. كانت فرصة رائعة للتخلص من أي أفكار سلبية.. أصررت على مشاركة أسعد في هذه التجربة.

عندما ارتدينا معدات الغطس، قال أسعد وهو ينظر إلى نفسه في المرآة:

- أتعلم؟ أبدو كأنني بطل في فيلم من تلك الأفلام الرديئة التي تُعرض بعد منتصف الليل.

ضحكت وقلت:

- **بطل أم لا، المهم أن نغوص ونستمتع، وربما نجد حلاً لمشاكلك في أعماق البحر.**

غصنا في المياه الزرقاء، وهناك تحت السطح، وسط الأسماك الملونة والشعاب المرجانية، بدا كل شيء أكثر بساطة وجمالاً.. بعد أن صعدنا إلى السطح، نظر إلي أسعد وقال:

- **تعلم يا صديقي؟ ربما أنت محق.. الحياة ليست معقدة كما أظن.. ربما كل ما أحتاجه هو خطوة شجاعة، سواء تحت الماء أو فوقه.**

كانت تلك اللحظة بداية جديدة لأسعد.. وعد نفسه بأنه سوف يواجه طليقته، ليس ليطالب بشيء لنفسه، بل ليعيد لطفلته ما تستحقه، أبًا يحبها، وحياة خالية من الصراعات.. أما أنا، فقد وعدت نفسي ألا أتدخل مجددًا في حياة أحد... إلا إذا كانت هناك نوارس في القصة.

بعد أن انتهت رحلة أسعد بلقاء ابنته، قررنا أن نكمل إجازتنا بزيارة الأماكن التاريخية في شرم الشيخ، عسى أن نجد بين الحكايات القديمة درسًا جديدًا يضفي على حياتنا معنى أعمق.. استأجرنا سيارة وتوجهنا إلى منطقة "رأس محمد"، المحمية الطبيعية التي تحمل في أعماقها حكايات التاريخ والجغرافيا.

هناك، بينما كنا نتجول وسط الشعاب المرجانية وأشجار المانغروف، أشار لنا دليل سياحي إلى منطقة ساحلية وقال:

هذه المنطقة شهدت واحدة من أهم لحظات التاريخ المصري الحديث.. خلال حرب أكتوبر 1973، لعبت منطقة شرم الشيخ دورًا استراتيجيًا في استعادة سيناء.. القوات المصرية نفذت عمليات جريئة في هذا المكان، وكانت هذه الأرض شاهدة على الإنجازات.

أسعد كان يستمع باهتمام، ثم قال للدليل:

- **هل تعني أن هذه المنطقة كانت جزءًا من معركة أكتوبر ؟**

أومأ الدليل بفخر وقال:

- **بالطبع.. كل شبر هنا يحمل في طياته ذكرى بطولة وشجاعة.. هذه المياه التي تراها أمامك، كانت جزءًا من معركة السيطرة على الممرات البحرية في خليج العقبة.. إنها ليست مجرد وجهة سياحية، إنها شاهد صامت على إرادة أمة.**

بينما كنا نحدق في المياه الهادئة، قال أسعد بتأمل:

- **أتعلم يا صديقي؟ ربما نحتاج أن ننظر إلى حياتنا كما ننظر إلى هذه الأرض.. قد يبدو كل شيء هادئًا الآن، لكن خلف هذا الهدوء توجد معارك خاضها أناس مثلنا، فقط ليتركوا لنا هذا السلام والأمان.**

أجبته بابتسامة:

- **وهذا ما يجعلنا نتعلم، أسعد معاركنا صغيرة، لكنها تستحق أن تُخاض.**

أكملنا يومنا في رأس محمد، وكلما نظرنا إلى الأمواج التي تحتضن الصخور، تذكرنا أن الشجاعة تبدأ بخطوة، وأن الأرض لا تنسى من ضحوا لأجلها.. في نهاية الرحلة، قلت لأسعد:

- **والآن، ما رأيك أن نكتب نحن أيضًا حكايتنا هنا؟ حكاية أسعد وأبنته التي انتصر لأجلها، وحكاية مهند الذي لا يزال يعاني من اسمه في الصعيد!**

ضحك أسعد وقال:

- **ربما تصبح هذه الحكاية يومًا جزءًا من تاريخٍ يُروى... ولو كان ساخرًا!**

بينما كنا نضحك ونسير على طول الشاطئ، شعرت بأن تلك اللحظات كانت تحمل لنا أكثر من مجرد استرخاء.. كانت تحمل معنى عميقًا عن التغيير، عن الأمل، وعن الشجاعة في مواجهة المجهول.. وكأن التاريخ الذي مرّ أمامنا في رأس محمد، معركة الأبطال في حرب أكتوبر، كان يهمس لنا بأننا أيضًا قادرون على مواجهة معاركنا الشخصية، مهما كانت صغيرة أو كبيرة.

وفي اليوم التالي، قررنا أن ننتقل إلى أحد المواقع التاريخية في شرم الشيخ، وهو "دير سانت كاترين"، الذي يقع في قلب جبل موسى. هذا المكان، الذي يعتبر واحدًا من أقدم الأديرة في العالم، ليس مجرد معلم ديني بل هو أيضًا شاهد على تاريخ طويل من الصبر.

عندما وصلنا إلى الدير، أشار دليلنا السياحي إلى الجبال المحيطة وقال:

- **هنا، على هذا الجبل، نبي الله موسى عليه السلام تلقى الوصايا العشر.. أما الدير نفسه، فقد تأسس في القرن السادس الميلادي، وهو شاهد على تطور المنطقة عبر العصور المختلفة.**

وعندما دخلنا إلى داخل الدير، كانت الأجواء هادئة للغاية، مع صور دينية تزين الجدران وأديرة قديمة تحتفظ بتاريخ طويل من التضحيات.. شعرت وكأنني أنتقل عبر الزمن، من اللحظات العصرية التي عشناها في البحر، إلى تلك الأيام البعيدة التي شهدت حياة من نوع آخر.

أسعد كان صامتًا لبعض الوقت، ثم قال بنبرة هادئة:

- **ربما ما نحتاجه أن نكون أكثر تسامحًا مع أنفسنا.. فقد عشنا الكثير من الصراعات الداخلية في حياتنا، وأنا لا أريد أن أظل أسيرًا لماضي لا يمكن تغييره.**

نظرت إليه، وقلت:

- **نعم، ولكننا هنا الآن، وفي هذه الأرض التي شهدت أوقاتًا عصيبة، تعلمنا أن أكبر معركة هي معركتنا مع أنفسنا.. نحتاج فقط أن نتصالح مع ماضينا كي نمضي قدمًا.**

وفي تلك اللحظة، بينما كانت أشعة الشمس تتسلل عبر النوافذ القديمة للدير، شعرت بأن أسعد بدأ يرى الحياة من منظور مختلف.. ربما كانت تلك الإجازة أكثر من مجرد هروب من الواقع، كانت رحلة داخل أنفسنا.. ورغم أنها كانت

مليئة باللحظات الساخرة والمشاهد العفوية، إلا أن كل لحظة كانت تحمل درسًا عميقًا عن كيف نواجه ما نمر به في حياتنا.

المكان كان مثاليًا للهروب من كل شيء، بعيدًا عن الضجيج والهموم.. لا شجارات، ولا مكالمات مزعجة، ولا حتى مطبخ يعج بالأصوات.. فقط البحر، والرمال، والموج الذي يلامس الشاطئ بلطف.. كانت الأجواء مثالية للهدوء والاسترخاء.

أسعد، كما تعرفون، مرّ بفترة صعبة مع طليقته وابنته، وكان دائمًا ما يردد لي:

- **يا حنفي، الأطفال نعمة، ولكن عندما تكون بعيدًا عنهم... تشعر وكأنك فقدت شيئًا عظيمًا.**

كنت أبتسم وأرد عليه قائلاً:

- **هل تظن أن ابنتك الصغيرة لو كانت معك، ستظل هادئًا؟**

أسعد كان يتنهد قائلاً:

- **لو كانت معي، كانت حياتي ستكون مختلفة. لكن... هي ليست معي، وهذه هي الحياة."**

لم يكن لدينا شيء سوى البحر، والرمال، والهدوء الذي بدأ ينقلب إلى شيء غريب في تلك الليلة.

في إحدى الليالي، بينما كنا في الفندق، شعرتُ بشيء غير مريح.. الهواء بدأ يزداد برودة، وكأن الرياح تعصف من بين الجدران.. أسعد توقف فجأة عن الكلام، ونظر إلى الأفق بقلق سأل أسعد بصوت منخفض:

- **هل تسمع هذا الصوت؟"**

أجبتُ وأنا أحاول طمأنته

- **صوت؟ربما هو مجرد الرياح.. لا شيء هنا يثير القلق.**

لكن أسعد كان يبدو غير مطمئن، وقال بصوت منخفض:

- **لا، ليس صوت الرياح.. هناك شيء غريب يحدث هنا... أنا أشعر أن المكان لا يخلو من شيء غريب.**

ابتسمتُ له قائلاً:

- **أنت دائمًا ما تفكر في أشياء غريبة.. هل تعتقد أن هناك أشباحًا في الفندق؟**

أسعد لم يقتنع بالحديث.. قال وهو يتطلع إلى الأفق:

- ليس أشباحًا، ولكن المكان هذا مليء بالحركة الغريبة.. هذا المكان به بشيء لا أعرفه.

بينما كان يتحدث، بدأ الصوت الغريب يعود همسات غير واضحة، وحركات خفيفة خلف الجدران.. هل كان مجرد خيال؟ أم أن هناك شيئًا آخر؟ أسعد بدأ يتحرك في الغرفة بحذر، يفتش في الجدران والمفاتيح، وأنا لم أستطع إلا أن أراقب في صمت.

ثم قال أسعد وهو يلتفت إليّ بنظرات متسعة:

- أنتَ شعرتَ بذلك، أليس كذلك؟ هناك شيء غريب يحدث هنا.

حينها، نظرتُ إليه وضحكتُ بخفّة:

- ربما تكون تأثرت بالجو، ولكن هل هنا مكانًا يطارده التاريخ؟

لكن أسعد لم يكن يمزح، بل اقترب من النافذة وقال:

- هذا الفندق مسكون

وفجأة، بينما نحن صامتين، شعرنا بشيء يتحرك خلفنا.. لم نرَ شيئًا، ولكن شعورًا غريبًا تسلل إلى جسدينا.. الجو أصبح ثقيلًا، والرياح اشتدت.. هل كان هذا خيالنا، أم أن هناك شيئًا حقيقيًا وراء ذلك؟ لم نكن متأكدين.

في اليوم التالي، استفاقنا مع شروق الشمس، وكل شيء عاد إلى هدوئه المعتاد.. ولكن داخل أسعد، كان شيء قد تغير.. وكأن التأثير النفسي لهذا الفندق قد ترك أثره عليه.. نظر إليّ وقال مبتسمًا بتوتر:

- **أتعرف؟ ربما كان خيالًا. لكنني شعرت بشيء غريب الليلة."**

أجبتُ مبتسمًا:

- **أنت دائمًا تجد شيئًا لتخاف منه! دعنا نستمتع بهذا اليوم قبل أن تجد شبحًا آخر في الشاطئ!**

ضحكنا معًا، لكن في أعماقنا، كان هناك شيء لم نكن قادرين على تفسيره. شيئًا ما ظل معنا، حتى مع عودة الشمس وهدوء المكان.

بعد أيام قليلة في شرم الشيخ، كان الجو الهادئ يعكس صورة جميلة للمكان، لكن شيئًا ما كان غريبًا.. كأن الرمال التي تلامس قدميك تحمل ذكريات قديمة، أو ربما كانت الرياح تحمل أنفاسًا من الماضي لا نريد تذكرها. أسعد، الذي عادة ما يحب الحديث عن كل شيء، أصبح صامتًا بشكل غريب.. كان يمر بين الزوار، عينيه تركزان على البحر أكثر من أي شيء آخر، وكأن الموج يحمل شيئًا ثقيلًا على قلبه.

في أحد المساءات، بينما كنا نتمشى على الشاطئ، تحدث أسعد بصوت منخفض، وكأن الكلمات كانت تخرج منه بصعوبة:

- **أتعلم، حنفي، هناك شيء هنا، شيء غريب في الأجواء بهذا الفندق، ربما حتى الموج يحمل معه صدى قديم.**

لم أفهم ما كان يقصده تمامًا، فقلت له مشيرًا إلى السماء الملبدة بالغيوم:

- **ربما أنت تتخيل، كل شيء هنا يبدو هادئًا.**

لكن أسعد لم يرد مباشرة، بل ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

- **الهدوء أحيانًا هو أقوى أنواع الصراخ.**

لم أتمكن من فهم المغزى، لكن بدا لي أن أسعد يحمل في قلبه شيئًا أكبر من مجرد ذكرى.. كان يبتعد عن الحديث عن الماضي، لكن في عينيه كان هناك شيء لم أكن أستطيع تسميته.

ثم في مساء اليوم التالي، قررنا الجلوس على حمام السباحة مع مشروب بارد، وبينما كنا نستمتع بالهدوء، هبت رياح فجأة، محملة برائحة البحر.. ولعدة لحظات، بدا لي وكأن المكان قد تغير تمامًا.. كانت الأنوار تومض بشكل غريب، وكأن شيء ما يتحرك في الأفق البعيد، ربما كان مجرد ظلال أو مجرد خيال، لكن شعرت بشيء غير مريح يلف المكان.

أسعد نظر إلى الأفق وقال بهدوء:

- **الذين مروا هنا في الماضي، تركوا خلفهم شيئًا، سواء كانوا يعلمون ذلك أم لا.**

حاولت تهدئته قائلاً:

- **ربما تكون مجرد فكرة في رأسك، أسعد.. الأماكن تحمل ذكريات كثيرة.**

لكن أسعد رد بسرعة:

- **ذكريات؟ أم أن هذا الفندق يحمل الأصداء، الأصوات التي لا نسمعها؟**

كان واضحًا أن شيئًا ما يعيقه عن الاستمتاع بما حوله.. حتى في تلك اللحظة، لم أستطع أن أتحرر من هذا الشعور بأن هناك شيئًا مختبئًا في هذا المكان، شيء عميق في الجدران أو في حمام السباحة، لا يُمكن لمسه بالكلمات.

سعاد وحنفية

وبينما كنا معا فى الرحلة قررت سعاد وحنفيه قضاء يوم الخميس معًا، بعيدًا عن أجواء العمل وضغوط الحياة، مع الأولاد الذين كانوا يغطون في نوم عميق، كما هي العادة في عطلاتهم.. حنفيه قررت أن تجعل من ليلة الخميس "مناسبة مرعبة"، فاختارت فيلم رعب قديم، بينما كانت سعاد تفضل أن تظل مترددة، ولكنها قررت الموافقة على مضض.. في النهاية، لا شيء سيقاطع أجواء المساء غير شبح "خيالها الواسع"!

بدأ الفيلم، وكانت سعاد على يقين أنها ستفتح كل الأضواء في المكان وتجلس تحت اللحاف، لكن لحظات الفيلم الأولى كشفت عن شيء غريب، فلم يكن مثلما توقعت.. بينما حنفيه تضحك بلا مبالاة على أحداث الفيلم، كانت سعاد تراقب كل حركة، حتى أصغرها.

ثم، وفجأة، بدأ المطبخ يرسل أصواتًا غير مألوفة، فسمعت سعاد الصوت، لكن حاولت أن تتجاهله.. لكن ما أن تكررت الأصوات حتى تجمدت في مكانها، ونظرت حولها بحذر:

- **هل سمعتِ هذا؟ هناك شيء في المطبخ!" همست سعاد، عيونها تسلطت على المطبخ المظلم، وكأنها تنتظر أن يظهر شيء غريب.**

لكن حنفيه، التي لم تكن لتأبه لأصوات من هذا النوع، أجابت بسخرية:

- **يا ستي، كل ما في الأمر أن أحدهم نسى يقفل الدرج.. قد يكون ذلك فقط الغسالة تعمل بشكل مزعج.. لا شيء يستحق القلق!"**

ومع ذلك، بدأت الأصوات تتصاعد تدريجيًا، مما جعل سعاد تزداد توترًا:

- **لا، هذا ليس طبيعيًا! شيء في المطبخ يتحرك! أؤكد لكِ! يجب أن نتحقق من الأمر.**

بينما كانت سعاد في حالة ذعر، لم تُبدِ حنفيه أي علامة على الخوف، بل على العكس، ابتسمت وقالت:

- **ربما كان مجرد فزع من الأفلام.. أعتقد أنني سأشاهد الفيلم حتى النهاية.. إذا كنتِ تريدين فزعًا حقيقيًا، أستطيع أن أفتح لك نافذة الغرف لأريكِ كيف يصدر الهواء صوتًا غريبًا أحيانًا.**

ومع ازدياد الأصوات في المطبخ، كانت سعاد تجلس على أطراف أصابعها، تتنفس بصعوبة وكأنها تنتظر أن يظهر "الشبح" مباشرة أمامها.. ثم، في لحظة، عاد الصمت ليتسلل إلى المكان، وكان كل شيء ساكنًا تمامًا، وكأن شيئًا لم يكن. سعاد، التي كانت تراقب المكان بحذر، همست:

- **هل تعتقدين أن هناك شيئًا غير طبيعي يحدث هنا؟**

وفي النهاية، شعرت سعاد وكأنها قد مرّت بتجربة حقيقية، لكن في اللحظة التي قررت فيها أن تغلق الأضواء وتخلد إلى النوم، فوجئت بأن حنفيه قالت بضحكة خفيفة:

- **صدقيني، سعاد، في هذا المنزل، إذا أردتِ حقًا أن تشعري بالرعب، عليكِ فقط التفكير في تلك الفواتير التي لم ندفعها بعد!**

في تلك اللحظة، تبادلتا النظرات، بينما كان الأولاد ما يزالون نائمين ، وكأنهم لا يعرفون شيئًا عن الفزع الذي مرّت به أمهاتهم، ولكن هل كان ذلك كله مجرد خيال؟

بعد الإجازة

عدنا من الرحلة، وقد أنهت سعاد وحنفيه عطلتهم سويا، وبدأنا العودة إلى الروتين المعتاد.. بعد يومين فقط، قررت سعاد أن تدعونا جميعًا لتناول الغداء، لكن ما لم نتوقعه كان المفاجأة التي فاجأت الجميع.

وصلنا إلى منزل سعاد، وفوجئنا بقرار طليقة أسعد، التي قررت أن تترك صغيرتها هنا لأن "القلب" قرر أن يمر بتجربة جديدة في حياتها..نعم، قررت أن تتزوج قريبًا! سعاد، التي كانت تفكر طوال الوقت في كيفية لم شمل الأولاد الأربعة معًا، لم تُبدِ أي اعتراض، بل كانت سعيدة بالفكرة.. لكنها رفضت تمامًا النظر إلى طليقة أسعد أو التحدث معها، بل توجهت إلى الصغيرة "إسعاد"، وضمتها بين ذراعيها قائلة:

- **كم أنتِ طيبة القلب يا إسعاد، ستظلّين دائمًا في قلبي.**

أما أنا، فقد كنت أراقب الموقف في صمت، ولاحظت كيف أن سعاد أصبحت هي الراعية للعائلة بكل أبعادها.. بعد قليل، بدأنا في تبادل الأحاديث، وكل واحد منا بدأ يحكي ما مر به أثناء العطلة، فقصص الرعب التي مررنا بها كانت حاضرة

في أذهاننا جميعًا.. كنت أنا وأسعد معًا، وحنفيه وسعاد معًا، وكلنا مررنا بتجربة مشابهة في تلك الرحلة.

ضحكنا سويا، وكأننا استعدنا شبابنا، رغم مرور الوقت وبعد المسافات بيننا.. روت سعاد كيف أن خيالها كان يطاردها في تلك الليالي المظلمة، بينما كان أسعد يشير إلى الحوادث المريبة فى عقله فقط التي حدثت أثناء الرحلة.. أما حنفيه، فقد كانت تسخر من جميع هذه القصص، وقالت بابتسامة ساخرة:

- **ألم تكفيكم حكايات الرعب هذه؟! يبدو أنني سأحتاج إلى إحضار كاميرا تصوير حرارية إذا أردنا أن نكون في قلب الحدث!**

لكننا ضحكنا جميعًا، لأننا كنا نعلم أن القصص كانت مجرد خيال صنعته مغامراتنا.. ومع ذلك، لا أحد منا كان يصدق أن تلك الأصوات الغريبة التي سمعناها كانت مجرد صدف.. ومع كل ضحكة، شعرنا بأننا، رغم كل شيء، ما زلنا جزءًا من تلك اللحظات التي جعلت العائلة تلتئم بشكل غير متوقع.

كان الجو غير معتاد في تلك اللحظات، لكنني شعرت أن هذا التجمع، على الرغم من كل التغيرات في حياتنا، كان أكثر قربًا من أي وقت مضى.

استيقظنا في صباح يوم عادي، وذهبنا إلى العمل في البنك كما هو معتاد، تاركين مهندًا في الحضانة القريبة من مكان العمل.. بعد يوم طويل من الاجتماعات والمراجعات، عدنا إلى المنزل، ولكن المفاجأة كانت في انتظارنا: الثلاجة فارغة تمامًا، وكأننا نعيش في فيلم ما بعد الكارثة.

بابتسامة هادئة قالت حنفيه:

- نعم، أطلب تونة وكشري، وبعض الحليب والبيض للصغير.

تذمرت في نفسي وقلت: "تونة؟ كشري؟! وأيضاً حليب وبيض؟! هل هذا معقول؟!" ولكنني تمالكت نفسي وأجبتها:

- أنا متعب

لكنها لم تتراجع وقالت:

- أنا لا أريد منك شيئًا سوى أن تشتري لنا هذه الأشياء.. الصغير يحتاجها، ولن أسمح لك بالاعتراض.

قررت أن أنزل لشراء الطلبات، وفي نفسي أفكر: "٢٠٠ جنيه على تونة وكشري؟!" وعندما دخلت المحل، بدأت أتمتم في نفسي.

الموظف في المحل، الذي كان يراقبني وأنا أتفحص الأسعار، ابتسم وقلت له بسخرية:

- والله يا أستاذ، لو كنت موظفًا مثلي في البنك، كنت ستجد الحياة كلها أرقامًا وحسابات، ولكن صدقني، لا يمكن حل كل شيء بالأرقام.

حاولت أن أبتسم، لكنني هرولت مسرعاً إلي حنفيه.

ساعة الفراق

استيقظت صباحًا على صوت بكاء أسعد، وهو يردد بحزن: "أمي...". كانت سعاد تنظر له بحزن، وعينيها تلمعان كأنها تتذكر الأيام الصعبة.. قالت بصوت منخفض:

- لقد ماتت الست توحة

رغم ما مرت به سعاد معها، تذكرت لها بعض الطيب، وتناسَت المعاملة القاسية التي كانت تتلقاها من توحة.. بل حتى اختيار العروس الجديدة لابنها لأجل الولد، وبالرغم من كل هذا، أحضرت سعاد الطفل .

لكن، في النهاية، هو النصيب.. بعد وفاة أم أسعد، أصبحت سعاد بمثابة الأم بالنسبة له.. بدأ يسمع كلامها، حتى ولو كان يتعلق بعدم التبذير والمظاهر الكاذبة، وأصبح كل ذلك في خبر كان.. قام ببيع شقة أمه وأودع أموالها في حساب سعاد كوديعة، ليجدها هي من تدير الأمور وتتصرف كما تشاء، بل خصص نصف المرتب لها.

كنت أراقب كل ما يحدث، سعيدًا بقرارات أسعد، ولكن كنت أتساءل: هل توحة كانت السبب في تربية أسعد بهذا الشكل؟ هل كانت هي من زرعت فيه هذه العادات والقرارات الخاطئة؟ أم سعاد هي من صنعت المعجزات فجأة؟! أسئلة كثيرة في رأسي، لكن ما جرى كان أشبه بمسرحية كبرى!

بعد وفاة توحة، شعرت أمي بحزن عميق، وكان الفقد ثقيلًا على قلبها، كما لو أن جزءًا منها قد رحل معها.. لكن حنفيه، بتفكيرها الحكيم وحبها الكبير، قررت أن تجعل أمي تعيش معنا في منزلنا، لتكون بجانب أمي في تلك الفترة الصعبة..

كانت تعلم أن الفراق لا يعوض، ولكن وجودها هنا قد يخفف عن أمي بعض الألم.

ومع مرور الوقت، بدأت أمي تتأقلم شيئًا فشيئًا صحيح أن الجرح كان لا يزال موجودًا، ولكن مع وجود حنفيه، بدأت أمي تتناسى الحزن، بل وتبدأ في الانفتاح على الحياة من جديد.. كانت تأخذ أمي في بداية كل شهر لتقف أمام ماكينة الصرف، كي تستلم المعاش. وكان الموقف هناك مثل مسرحية فوضوية، ازدحام أكثر من حياتنا كلها! بينما هما هناك، تحاول أمي التماسك، لكن في لحظة من اللحظات، تتذكر توحة فتبدأ بالبكاء. عندها، قررت حنفيه أن تتولى المهمة وتغادر الفئران في البيت، وتذهب هي بنفسها لتأخذ المعاش بدلاً عن أمي، على أمل أن تُريحها من الذكريات الحزينة والشجار المستمر كل أول شهر أمام الماكينة.

أما بالنسبة لي، فقد كنت أراقب هذا التغير في أمي بعينين مليئتين بالمشاعر المتضاربة.. كانت حنفيه تُعيد ترتيب البيت والمشاعر، وكأنها تضع كل قطعة في مكانها الصحيح، بينما كانت أمي تنقلب بين الحزن والراحة.

ورغم أن الفقد لا يُنسى، إلا أنني شعرت بأننا جميعًا بدأنا نتعلم كيف نتعايش مع الحزن، وكيف نبحث عن السعادة وسط الظلام.. كانت حنفيه مثل شعاع ضوء في غرفة مظلمة، تنير كل زاوية بروحها الطيبة.

كلمات حنفيه لاتنسى ،قالت بابتسامة هادئة: -

- **اصبر على الابتلاء، فغالبًا ما يأتي في لحظات غير متوقعة.**

وأضافت:

- **أحيانًا، تأتي السعادة والسكينة، لكن لن تفهم معناها إلا بعد مرور الزمن.**

كان كلامها يحمل شيئًا من الحكمة التي لم أكن قد استوعبتها بعد.. في تلك اللحظة، شعرت وكأنها تفتح أمامي أبوابًا مغلقة لم أدركها من قبل.. كيف للصبر أن يكون مفتاحًا لكل شيء، وأن السكينة ليست مجرد حالة، بل درس يأتينا متأخرًا؟!

لكن، مع مرور الأيام، بدأت أرى كيف أن تلك الكلمات كانت تملأ الفراغات التي تركتها تقلبات الحياة.. فكل لحظة صبر كانت تكشف لي شيئًا جديدًا، وكل ألم كان يصير أكثر احتمالًا.. لن أقول إنني فهمت كل شيء، لكنني بدأت أرى الأمور من زاوية مختلفة، وأدركت أن الفهم الكامل غالبًا ما يأتي متأخرًا، كما قالت حنفية.

لعنة المال!

لم أكن أتصور أبدًا أن سعاد ستكون نسخة مصغرة من توحة في البخل..

ليكون عالم أسعد هو سعاد، كان المال هو كل شيء.. أصبحت هي المتحكمة في جميع الأمور، حتى في حياة أولادهما..لقد تحولت مع مرور الوقت إلى نسخة أخرى من حماتها توحه، تلك التي لا تعرف إلا البخل والترشيد، حتى على أبسط الأشياء.. لم يعد المال فقط هو الذي يشكل حياتهم، بل صار السلوك ذاته جزءًا من فلسفة الحياة.. وأصبح كل قرار في منزلهم مرتبطًا بحسابات دقيقة، حتى أشياء مثل ترفيه الأولاد أو تدريبهم على الرياضة..

- **لسنا متفرغين لتلك الاموار"، كانت تردد سعاد دائمًا تلك المقولة، وكأنها اكتشفت قانونًا جديدًا للعيش.**

بينما كانت سعاد تدير شؤون منزلها بيد حديدية، كانت حنفية، تجد نفسها في حيرة.. ابننا "مهند" كان يملك طموحات كبيرة في الرياضة، وكان شغوفًا بالكاراتيه، ولكن الكابتن نظمي كان يطلب مبالغ فيها غير للطلبات المستمرة: القفازات، البدلة، والبطولات التي لا تنتهي.. وبينما كانت حنفية تحاول تقليل التكاليف، كانت ترى في الكاراتيه فرصة لصقل شخصية مهند وتعلمه الانضباط، ولكن مع تلك الطلبات الباهظة، بدأت تشعر بالقلق..

- **سوف نتكلف الكثير، والمصاريف تزيد!**

كانت تقول لنفسها وهي تحاول أن تجد حلًا وسطًا.

على الجانب الآخر، كان مهند يصر على تعلم كرة القدم.. كان يحلم بأن يصبح لاعبًا محترفًا، رغم أن مهاراته في الكاراتيه كانت واضحة.. لكن حنفية كانت مترددة.. "لن نستطيع ان ندفع كل تلك الأموال ؟الكورة ليست الأغلى لكن؟" كان هذا السؤال يطاردها، وهي تحاول أن تجد حلًا يناسب الجميع.. كان مهند يُظهر حماسته وشغفه بكرة القدم، يركض في الحي وهو يحاول أن يُظهر

مهاراته، لكن سيدة البيت كانت تفكر بطريقة أخرى: "هل الكرة تستحق كل هذا الجهد؟"

ثم جاء يومٌ حاسم.. حنفية قررت أن تذهب مع مهند إلى صالة الألعاب التي كانت تدربه فيها بنفسها.. كانت صالة صغيرة لا تتعدى كونها مكانًا بسيطًا للتمرين، لا تعدو أن تكون أكثر من ساحة صغيرة تحولت إلى ملعب بعد ساعات من العمل الدؤوب.. بينما كانت تتأمل في المكان، أدركت حنفية أنها تقف في مفترق طرق.. "هل أستمر في الكاراتيه بتكاليفه المرتفعة، أم أدع مهند يسعى وراء حلمه في كرة القدم دون دعم مناسب؟"

وكان السؤال الذي يطاردها أيضًا: هل سعاد على حق في سياساتها المالية؟ وهل بإمكانها الموازنة بين حلم ابنها ودور المال في الحياة؟ لكن حنفية كانت تدرك شيئًا واحدًا: أن الرياضة لا تقاس بالمال فقط، بل بالعزيمة والإصرار والصحة.

بينما كان أسعد وزوجته سعاد يعيشان في عالم المال الذي لا ينتهي، كانت حنفية تجد نفسها تبحث عن طريق آخر.. لكنها كانت تعلم أن الطريق الذي تسلكه، مهما كان مليئًا بالعقبات، سيكون الطريق الذي يتماشى مع حلم مهند، حتى لو كانت عليه التضحية بمال قليل، ولكن بلا شك سيظل الأهم هو الإيمان بأحلامهم.

بين هذا وذاك، ظلت الأسرة في دوامة مستمرة.. سعاد كانت تعتبر أن المال هو مفتاح كل شيء، بينما حنفية كانت تؤمن بأن هناك أشياء لا يمكن شراؤها بالمال: الأحلام، والمستقبل.

قررت حنفيّة في النهاية أن تتبع ما يراه مهند مستقبلاً له.. كانت تعلم أنه موهوب في كرة القدم، لكن حلمه كان الانضمام إلى نادٍ كبير، وكان الاشتراك

في هذا النادي يتطلب مبلغًا ضخمًا، خمسة وعشرون ألفًا، والباقي يُسدد بالتقسيط.

حاولت حنفيّة أن تستلف من سعاد، لكنها خذلتها وقالت بنبرة متأسّفة:
- أنا آسفة، لكن لا أستطيع مساعدتك في الوقت الحالي.

شعرت حنفيّة بخيبة أمل، لكنها لم تستسلم.. في تلك اللحظة، كانت أمي في المطبخ تسمع الحديث، فاقتربت منها وقالت بحزم:
- لا تقلقي، لدي بعض المال، والمهم أن تكون نفسية مهند بخير.

اتخذت أمّي القرار بسرعة، وأكدت: "مهند يجب أن يلعب في نادي كبير، فهذا حقّه".

وبالفعل، تم دفع المقدم، وتعهدوا بالتزام دفع الأقساط حتى يحقق مهند حلمه.. ولكن في قلب حنفيّة، كان هناك مزيج من الأمل والقلق، وكانت تفكر: هل سيصبح مهند نجمًا كبيرًا؟

بعد أعوام ليست بقليلة
"كينبوك"

كتبت عامًا بعد عام لأجعل الحدث دائمًا جديدًا أمامك، ولا تسألني لماذا؟ فقط لأنَّ الحياة أحيانًا تمنحنا لحظات مفاجئة.. أنجبت حنفيه طفلًا آخر، ولم نكن قد اخترنا اسمه بعد، لكن فجأة، قرر عمي أن يُسمّي الطفل "سيف".
وافقت حنفيه على الفور، حتى لا يثير غضب عمي، خصوصًا أن أمي كانت قد أقنعتها بالفكرة.. كنت سعيدًا لأن هناك من يستطيع إقناع حنفيه بما لا أستطيع، وكبر الولد بسرعة، لكن فجأة، جاء ما لم نكن نحتسبه.

لم أكن أتصور أبدًا أن هذا الطفل الصغير سيواجه أمر أكبر من قدرته وقدرتنا.
أصيب بمرض غريب في عظم اليد، مرض غير معروف، لم يكن له تفسير طبي واضح.. قالوا عنه "كينبوك"، أو "مرض العظمة الهلالية"، لكنها كانت مجرد كلمات غريبة لأمراض أغرب، مرض لا أحد يعرف إن كان وراثيًا، أم نتيجة إصابة، أم مجرد صدفة.

أذكر ذلك اليوم جيدًا عندما ذهبنا إلى الطبيب،
كان صمت العيادة يضيق عليّ كما لو أن الوقت قد تجمد.. نظر الطبيب إلى صغيري الذي لم يتجاوز العاشرة وقال لي بنبرة غير مطمئنة:
- طفلك معرض لفقد جزئي في حركة يده بعد عملية سمكرة جزئية يصل العجز ٦٠فى المائة.
توقفت كلماته في الهواء، وكأن الزمن توقف لحظة.. ثم أضاف الطبيب الآخر، الذي كان أكثر صراحة:
- لا أمل في العلاج، العملية ستكون مجرد مسكن.
كأن السكاكين تجرح قلبي، وشعرت بأن الأمل بدأ يتسرب بعيدًا عني.. كيف سيعيش سيف بهذه الألم ؟كيف سأخبره عن المستقبل الذي قد يواجهه؟

كانت عينيّ مليئة بالدموع، لكنني حاولت أن أختفي خلف صمتي.. كيف أواجه حنفيه؟ كيف أشرح لها أن المستقبل قد لا يكون كما نحلم؟ في تلك اللحظة، كان العالم من حولي يغرق في الظلام، وكأن المرض أصبح جزءًا من حياتنا.. لم يكن لدينا سوى الأمل الذي تمسكنا به، وكان الأمل وحده هو ما تركته لنا الحياة.

وفي تلك الليلة، وأثناء جلوسي بجانب سيف، وأنا أراه يئن من الألم ويضع يده المغطاة بالجبيرة، قلت له في همساتٍ لا تكاد تُسمع:

- **سيف، مهما كانت الرياح عاتية، لن نتوقف عن الإبحار.**

لكن في أعماقي، كنت أتساءل:

- **هل سيتوقف الألم يومًا؟ وهل سنظل نعيش مع هذا الحلم البسيط، بأن تكون يده بخير؟**

أشعر بألمٍ عميق وأنا أراه يتألم، وتغمرني فكرة أن حياتنا قد تتحول في لحظة.. لكن في كل مرة أنظر فيها إلى عينيه، أشعر بنعمة الحياة، وأدعو الله أن يشفيه، وأن يشفي كل صغيرٍ يئن.

لن تتوقف حياة سيف هنا، كبر مهند وأصبح محترفًا، بل وأصبح متفوقًا أيضًا! وبينما كنت أراقب هذا التحول، كانت بنات أسعد في حالة يرثى لها.. تبدلن بشكل لا يصدق، محبطات ومنطويات، كأنهن في فصل الشتاء طول العام.. وتزايدت المشاجرات في البيت، ولكن ليس بسبب الغيرة أو الخلافات العائلية، بل بسبب المال! وبدأ الصوت يرتفع في كل زاوية.

كان صوت اسعد يعلو ليعلن عن ما يحدث بين أولاده، ابنته الغير شقيقة إسعاد كانت تعاني، فوجدت في منزلنا ملاذًا دافئًا.. وعندما كانت سعاد تعترض، قائلةً:

- **عندكم صبيان لا يصح وجودها بجوارهم!**

كان يقول لها:

- **لكنها في حضن أمي أمينه ، وأختي حنفيّة، وأخي حنفي!" وكأن هذا لا يعني كل شيء.**

وكان أسعد يتجاهل سعاد بشكل غريب، أعتقد أن علاقتهم انحصرت الان فى الأولاد فقط، كبر مهند وأصبح فى الرابعة عشر وتمنيت في قرارة نفسي أن تكون إسعاد له في يوم من الأيام. لكن، بالطبع، هو صغير على التفكير في مثل هذه الأمور.. والنصيب؟ هذا لا يعلمه إلا الله، أما إسعاد، فكانت طيبة وحنونة، ولا تختلف عن باقي بنات أسعد جمالًا وحنانًا.. لكن، المفارقة كانت أن البنتين كانتا تخافين من أمّهن خوفًا غير مبرر، وكأنها ساحرة مسلّحة بالتحديق القاتل! أما الولد، فكان تقريبًا في نفس عمر مهند، ابني الكبير، فماذا كانت النتيجة؟ هرج ومرج بلا فائدة.

أما سيف، فقد كان يشغل حنفيّة على الدوام.. لكن حنفيّة، وبكل حزم، قررت أن تحقق حلمه في التمثيل! فالتحق بورشة تمثيل، وماذا بعدها؟ لن أتحدث عن المزيد الآن، فقط انتظرونا على أكبر هراء بعد صالات الألعاب الرياضية، حيث كل شيء ممكن، حتى السخرية من الواقع.

شاهدت حنفيّة إعلانًا عن ورشة لتعلم التمثيل بالمجان، وكان المخرج سرحان يروج لها بشغف.. وفي لحظة غير متوقعة، قالت حنفيّة:

- **هذه فرصتنا، دعني أتصل الآن!**

وبالفعل، اتصلت بدون تردد، وكان الرد سريعًا:

- **أهلاً وسهلاً، الورشة تبدأ غدًا.**

دخلنا المسرح الاستثماري الكبير، وفي داخلي كنت أتخيل أنني سأرى على الأقل مسرحًا يليق بأفلام هوليوود.. لكن، كانت المفاجأة! المخرج سرحان قال بابتسامة واسعة:

- **الورشة بخمسين جنيه في اليوم، ولكن لا تقلقوا، هي قيمة تعلم التمثيل الحقيقي!**

ضحكت حنفيّة وقالت في نفسها:

- **خمسين جنيه في اليوم؟! يعني بدل ما يتعلم التمثيل، هتعلم كيف أخسر فلوسي!"**

المخرج سرحان، الذي كان يبدو كأنه خرج من فيلم درامي قديم، نظر إلى سيف وقال:

- **أنت! صوتك كصوت العندليب، أيها العبقري! هل سمعت يومًا صوتًا أجمل؟"قالها لأحد الحضور**

سيف ابتسم وقال بتواضع:

- **شكراً، لكن... هل يمكنني الغناء؟**

المخرج سرحان رد بحماس:

- **بالطبع! ابدأ بالغناء!" فبدأ سيف يغني، وأداؤه كان أشبه بمزيج بين الفراعنة والعندليب، وهو يتحرك بحركات مسرحية مبالغ فيها، وكأننا في عرض كوميدي.**

ثم قال المخرج:

- **الآن، تعلمنا التمثيل الصامت، الحركي، وأنت يا سيف ستعلمنا تمثيل القصص والحكايات! هيا، قدم لنا مشهدًا من الخيال.**

سيف بدأ في تمثيل مشهد خيالي، فوقف المخرج يصفق بحرارة وقال:

- **هذا! هذا هو الدور الذي نبحث عنه! المسرحية القادمة ستكون لك ولأصدقائك، ستحصلون على أدوار نابغة!**

حنفيّة نظرت إلى سيف وقالت له ساخرًا:

- **نابغة؟! على الأقل نعرف كيف نستخدم أموالنا في مكانها!**

سيف ابتسم وقال:

- **ما دام الحلم مجاني، فأنا مستعد لدفع خمسين جنيهًا يوميًا!**

المخرج سرحان استمر في تحمسهم:

- **أنتم هنا لتكونوا النجوم! لا شيء مستحيل! هذه بداية الطريق، سترون!**

حنفيّة نظرت إلى المسرح وقالت:

- **إذا كانت هذه البداية، أتمنى أن يكون لدينا تذاكر عودة مجانية!**

لم يكتفِ سيف بهذا فقط، بل اكتشف في يوم من الأيام إعلانًا في المدرسة عن عمل مسرحي، وفورًا، قرر أن يكون جزءًا من هذا المشروع، فقدم طلبًا للمشاركة.. جلس ينتظر دوره بينما كانت الفصول تكتظ بنشاطات مدرسية متنوعة، من الرسم إلى الموسيقى، وكأن المدرسة هي مهرجان إبداعي مفتوح.

بدأ مخرج المدرسة في اختيار الأدوار، ولا أنكر أن الإدارة التعليمية قامت بعمل جبار دون أي مقابل.

كانت الإدارة التعليمية تحرص على توفير كل ما يلزم للأولاد: البسكويت والزجاجات المائية.. ومن بين الجميع، كان الصغير حافظًا للقرآن، وصوته العذب حقيقة، مما جعله يُختار لدور الراوي، وكنت سعيدًا بهذا الدور الجليل.

في الصباح كانت هناك نشاطات مدرسية، وفي المساء ورش عمل، فكانت الحنفية في حلقة مفزعة.. أمي مع سيف صباحًا، وحنفية ليلا مع سيف.. أما مهند، فقد أصبح بعض الشيء فهو يحتاج الرقابة لانه فى سن حرج، لكنني كنت الرقيب والصديق في الوقت نفسه.. تقاربت منه أكثر وأكثر، وبدلت صداقتي من أسعد إلى ابني مهند.. كنت أحضر معه التدريبات دون ملل، وعندما نزلت معه، أرتاح ويلتقي بأصدقائه، وأجلس على طاولة منفصلة، لأعطيه الحرية، بينما أصدقاؤه سعداء بانتصاراتهم، وأدفع المشروبات التي كانت مصدرًا للبهجة في تلك اللحظات.

مسرحية المهرجون

وافقت "حنفيّة" على الاشتراك في المسرحية، وقررت دفع ألف جنيه.. تخيّل أنك ممثل وتدفع لتمثيل "كوميديا سوداء" بأبهى صورها! أين حياتنا من هؤلاء الذين يستفيدون من تعبنا؟

انطلقت في أول بروفه مع "سيف"، وكنت متوترًا لأن المكان كان مختلفًا تمامًا عن المسرح المعتاد.. الشركة المنتجة كانت شقة في حي راقٍ، مليئة بصور الفنانين والمغنين.. كل مخرج كان له غرفة خاصة،مروحه واحده بحرارة الغرفة تصل إلى الخامسة والأربعين درجة ،وكان هناك مجموعة من الأولاد وبعض الوجوه الشابة، كلهم في مهمة "إبداعية" لدرجة أن أيّ واحد منهم كان يعتقد أنه نجم سينمائي.

في تلك اللحظة، وقفت فتاة عشرينية، جميلة الملامح، وكان واضحًا أن المخرج يريدها "لبطولة" المسرحية.. الفتاة كانت تتلقى تدليلًا غير عادي، وكأنها في مسلسل درامي، بينما كانت عيون المخرج تلاحقها بإعجاب.. أما دور "سيف"، فكان أغرب من الخيال! كان دوره شابًا يتكلم مثل النساء، ولكن لا أريد أن أذكر الاسم الحركي حتى لا أخرج عن النص! أحم، أظن أنكم فهمتم!

رفضت الدور، ولكن "أمهات المستقبل" جاءوا يصرخون:

- **يا أستاذ، ده دور لازم يتقنه الممثل!**

فاضطُررت لقبول الأمر رغمًا عني.. سيف كان موهوبًا، لكنني رفضت المشهد، فما كان من المخرج إلا أن قرر تغيير المشهد ليصبح "متوافقًا" مع شخصيته، كما لو كانت الشخصية مجرد قالب يمكن تشكيله!

المسرحية كانت قابلة للتعديل والتغيير بشكل عجيب، لأننا في النهاية دفعنا فلوسًا! في النهاية، أخذ "سيف" دور "مدرب"، وكنت سعيدًا بأنه سوف يكون

في دور رجل بمعناه التقليدي. كيف لا؟ أنا من الصعيد، ولا أستطيع أن أقبل بدور "غير رجولي"! ولكن المخرج، وفي خضم الفوضى، قرر إضافة مقطع غنائي مع الممثلة الصاعدة في المشهد.. وكأن الفوضى كانت غير مكتملة بدون ذلك!

المخرج نفذ تعليماته، والأمهات يتعصبن و يتأففون، و لكنهن في النهاية دفعن ألف جنيه، بخلاف القاعة، التي كانت تكلف ثلاثين جنيهًا في كل مرة.. وكلما حضروا جلسة، كان المبلغ يتضاعف! مهزلة بجدارة! وكأننا نعيش في عالم لا أحد يهتم فيه بالتفاصيل، طالما أن المال موجود!

وهكذا هي كواليس المسرحية ! وبالطبع، كنت أتمنى أن يكون هناك نوع من الرحمة عند المخرج ، ولكن يبدو أن الرحمة الوحيدة هي في حافظة العبد لله!

ذهبت "حنفيّة" في المرات القادمة إلى الورشة من أجل المسرحية، والمخرج كان يتعصب على "سيف" وكأن الفتى أصبح "نجم التمثيل" في المدينة! كان الرجل غريبًا جدًا، وكأن أحدًا منحته حق التعامل مع الأطفال! هل هذا مخرج أم "عسكري مرور"؟! الأمهات كنّ في حالة من القلق، بينما بدأنا في توزيع التذاكر على الأهل.

وبعد كل تلك الفوضى، والحمد لله، تمت المسرحية بنجاح "مقبول"! الأطفال حافظوا على أدوارهم بجدارة، أما الكبار... لا تسأل، فقد نسي الجميع النصوص وكأنهم في امتحان تاريخ!

لكن يوم العرض كان ملحميًا، لا يُنسى! المخرج يواصل تعصبه على الصغار، والأجواء كلها مشحونة بالتوتر.. الكبار بدأوا يتوترون أكثر من الأطفال،

وكأنهم في جلسة استجواب! لا أستطيع أن أنكر أنه كان "مدربًا" جيدًا، لكن مخرجًا؟ لابد أنه يحتاج إلى إعادة تقييم نفسه مرة أخرى، أو ربما إعادة التفكير في اختياره لمهنة الإخراج.

يوم ملحمي لا يُنسى، بكل تفاصيله العجيبة، المهم أن "سيف" أصبح معنويًا في السماء، خصوصًا أن المسرحية المدرسية وصلت إلى المستوى الجمهوري وتم تكريمه! نعم، التكريم على مستوى الجمهورية! عجيب، أليس كذلك؟ وفي وسط هذا كله، لا أستطيع إلا أن أقول: "لا تيأس!" الحياة تمضي ونحن يجب أن نمضي معها، حتى وإن بدا كل شيء وكأنه ينقض علينا.. كما يقولون: "ما دام فيك نبض، فكل شيء في الحياة له طعم!" حاول أن تكون نورًا بين أولادك، لا تتركهم يغرقون في الأحزان والمشاعر السلبية.. فحتى إذا كان جيبك يبدو وكأن بائع السجائر هو الوحيد الذي يشتري منه، فإن البقاء يجب أن يكون هدفك!

ولكن، لا تنسى أن سيف كان يعاني من "الكينبوك" – هذا المرض الغريب الذي يجعل العظمة الهلالية في يده تصبح صلبة وكأنها قطعة من الخشب! كلما كان يسحب يده في الحركة، كان يشعر بألم مرير، وكأن هناك مسمارًا في قلب يده! مع ذلك، كان يصر على التمثيل، وعلى الاستمرار في المسرحية! بل كان يقول مبتسمًا: "اليد توجع، لكن لا يوجد أمر يوقفني! " ولكن ألم يده كان يزداد يومًا بعد يوم.

قلت له في أحد الأيام:

- **سيف، أنت في البداية كنت بتتعامل مع المرض كأنه نكتة! لكن لو استمرينا كده، هتحتاج على الأقل إلى فريق طبّي! مش لاقي مكان ليدك في المسرحية!"**

قال مبتسمًا:

- **المرض بيحاول يمنعني، وأنا لازم أقاومه! لو العظمة الهلالية بتوجع، لازم اليد تظل تكتب!**
- **لكن يا سيف، الكتابة مش في اليد، الكتابة في الرأس!**

قلت له وأنا أحاول تهدئته.

"لكن، لو ماتت اليد، لن اكون بطل مثلما اريد!" قالها بمرارة، وهو يربت على يده المريضة.

سألت نفسي من أين له تلك القدرة يا سيف؟ ربما لأنها في النهاية فوضى، ونحن في هذا العالم كلنا نعيش في فوضى غير مرئية.. المخرج، الذي كان يعامل الأطفال وكأنهم جنود في معركة، لم يكن يهتم لحالة سيف الصحية، بل كان يصرخ فيه كلما تأخر في الحركة أو لم يؤدِّ المشهد بالشكل الذي يريده.

أما عن التكريم، فلم يكن هذا هو الهدف الأسمى.. بل كان سيف يسعى لشيء أعمق: أن يظل في القمة رغم الألم، أن يكون البطل في مسرحية الحياة.. أتمني أن يجد العلم علاج لهذا المرض اللعين الغير معروف ..كان معكم عبرةً وتجربةً، أستاذ حنفي.

تمت بحمد الله